محاضرات فى
تاريخ الدول الإسلامية المستقلة

دكتورة

أمل إبراهيم أبوستة

قسم التاريخ

كلية الآداب جامعة القاهرة

الناشر

محاضرات

فى

تاريخ الدول الإسلامية المستقلة

دكتور

أمل إبراهيم أبو ستة

قسم التاريخ

كلية الآداب – جامعة القاهرة

فهرس الموضوعات

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله سيد المرسلين .

أما بعد،،،

فهذا الكتاب يتناول محاضرات فى تاريخ الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق والغرب من حيث ظروف قيامها، وتطورها السياسى، وأسباب زوالها، وعلاقاتها بجيرانها من ناحية، وبالخلافة العباسية من ناحية أخرى. وعلى الرغم من ضيق الوقت قد حرصت على الاستعانة بعدد من المصادر الأصلية، والمراجع القيمة، كان فى مقدمتها الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. والبيهقى فى كتابه "تاريخ البيهقى" الذى كان يعد شاهداً عياناً على عصر السلطان مسعود الغزنوى . فضلا عن كتاب نظام الدين أحمد بخش الهروى صاحب الكتاب المسمى "طبقات اكبرى". وقد ترجمه إلى اللغة العربية عن الفارسية د.عبد القادر الشاذلى بعنوان تاريخ المسلمين فى الهند.

أما الكتاب القيم للمؤرخ فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد وعنوانه "تركستان من الفتح العرب إلى الغزو المغولى". فقد اعتمدت عليه اعتماداً أساسيا فى معظم فصول الكتاب لما تميز به من غزارة المادة العلمية، وأصالتها، وتميز عرضها، ودقة التحليل. فضلا عن اعتماده على العديد من المصادر الأصلية.

وفضلا عن ذلك فقد اعتمدت أيضاً على الكتاب القيم للعالمين الجليلين د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف وعنوانه "العالم الإسلامى فى العصر العباسى" وهو يعد بحق من المراجع الرئيسية فى تاريخ الدولة العباسية لما تميز به من أصالة المعلومة، وعمق الفكرة، وشمولية التناول.

وأسأل الله العلى القدير أن يمن على بالوقت والجهد حتى أتمكن من تدارك أوجه النقص، واستكمال كافة جوانب الموضوع،

وعلى الله قصد السبيل

د. أمل إبراهيم أبو ستة

دمياط ١/٣/٢٠٠٩م

التمهيد

الظروف التي ساعدت على قيام الدول الإسلامية المستقلة

الظروف التى ساعدت على قيام الدول الإسلامية المستقلة

انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية. وقامت الدولة العربية الإسلامية فى المدينة المنورة، ومنها انطلق المسلمون الأوائل بفضل ما تحقق لهم من وحدة سياسية، وقومية، وما رسخ فى وجدانهم من قيم الجهاد وحب الاستشهاد. انطلقوا يفتحون البلاد، ويسقطون الإمبراطوريات بأنظمتها المتردية التى كانت تقوم على الطبقية الصارمة، واستنزاف الشعوب لصالح الحكام، وفى البلاد المفتوحة انتشر الإسلام وحضارته، واللغة العربية وثقافتها، أما الأهالى سكان البلاد الأصليين فقد منحهم المسلمون الفاتحون الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وأرضهم، وعقائدهم، وخيروهم بين الإبقاء على دينهم مقابل دفع الجزية التى كانت تراعى ظروفهم الاجتماعية، ومستواهم الاقتصادى، أو الدخول فى الإسلام، وعندئذ يكون لهم ما للمسلمين العرب الفاتحين من حقوق. وعليهم ما على المسلمين من واجبات لا يفرق بينهما جنس ولا لون ولا لغة.

وفى البلاد المفتوحة عاش المسلمون الفاتحون جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين، كما تم توطين قبائل عربية بأكملها فى هذه البلاد، فامتزجوا معاً، مما سهل سبل الالتقاء السلمى بين الدين الإسلامى، والديانات المختلفة، وبدأت المقارنة بين تعالم كل منهما، فكان ذلك يصب فى صالح الدين الإسلامى، فدخلوا فى الإسلام.

كان عصر الخلفاء الراشدين هو عصر المثالية فى النظرية والتطبيق، إذ تمتع هؤلاء المسلمون الجدد بكافة الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فتولوا الوظائف العامة فى الدولة، وأعفوا من الجزية والخراج، وانضموا إلى الجيش وحصلوا على العطاء، غير أن هذا الوضع تغير كثيراً فى العصر الأموى فقد تعصب الأمويون كثيرا للعنصر العربى، فقصروا الوظائف السياسية والإدارية والعسكرية العليا، عليهم، وحرموا غير العرب منها. واعتبروهم مواطنين من

الدرجة الثانية. وأطلقوا عليهم لقب الموالى، ولم يراعوا فى ذلك حضارتهم العريقة، وثقافاتهم الثرية، ومجدهم التالد. خاصة الفرس الذين كانت إمبراطوريتهم بالأمس القريب تتقاسم مع الإمبراطورية الرومانية زعامة العالم. فى وقت كان العرب فيه مجرد قبائل بدو، رحل يتحاربون ويتصارعون على الماء والكلأ. وكانوا أقصى ما يطمحون إليه الحصول على بعض الغنائم والاسلاب فى غاراتهم على حدود الإمبراطوريتين العظميين، الأمر الذى أثار حفائظهم ضد الحكم الأموى، وزاد من سوء الحال مخالفة الدولة الأموية لتعاليم الإسلام، والأعراف فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف الثقفى عندما أبقت الجزية والخراج حتى على من دخلوا فى الإسلام حفاظاً على موارد بيت المال من التناقص نتيجة دخولهم المطرد فى الإسلام وإعفائهم من الجزية والخراج.

أفرزت هذه السياسة مزيداً من مشاعر الاستياء والحقد فى نفوس المسلمين الجدد ضد الحكم الأموى، ووجدوا فى الثورات المتتالية ضد الدولة الأموية فرصة سانحة للتعبير عن مشاعرهم، وآملاً فى تغيير أوضاعهم. فانضموا إليها، وشاركوا فيها. وكان من أعظم هذه الثورات على الإطلاق الثورة العباسية التى يرجع سبب نجاحها إلى التلاحم الشديد بين قوى الفرس، والدعوة العباسية؛ إذ جمعت بينهما المصالح المشتركة، والأهداف الموحدة، فالفرس وجدوا فى الدعوة العباسية تعبيرا عن رفضهم للحكم الأموى، وخلاصا منه، وأملاً فى قيام دولة جديدة تعترف بفضلهم، ويتمتعون فيها بمكانة تليق بتاريخهم وقوميتهم، ويحققون من خلالها أحلامهم وأطماعهم. أما الدولة العباسية فقد وجدت فيهم النصرة والتأييد خاصة، وأن العنصر العربى كان يميل للأمويين، لذلك فقد اتخذت من خراسان مركزا لدعوتهم، ومن الشعارات ما يمس مشاعرهم، فرفعت شعار المساواة، فلا فرق بين عربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح. هذا المبدأ الذى كانوا يفتقدون إليه فى العصر الأموى. وطالما طالبوا به، كما رفعوا شعار الرضا من آل البيت، وهو مبدأ يتفق تماما مع ما رسخ فى وجدانهم من فكرة التفويض الإلهى وتوراث الحكم

فى بيت النبوة، وبلغ التقارب بين العباسين والفرس إلى حد تبنى العباسيين وجهة نظرهم فأعلنوا خروج الأمويين على حدود العدل، ووصفوهم بالظلم، والتعدى على حدود الله . هذا التقارب أسفر فى النهاية عن نجاح الدعوة العباسية، وقيام دولتهم.

كان من الطبيعى أن يرد العباسيين الجميل للفرس، ففتحوا أمامهم أبواب الترقى والانطلاق فى كافة نواحى المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، فولوهم الوظائف السياسية العليا، واحتكرت أسر فارسية منصب الوزارة، مثل أسرة البرامكة، وبنو سهل، كما ولوهم قيادة الجيوش، وكان منهم الجند، وحصلوا على العطاء، وامتلكوا الضياع الواسعة، والأموال الطائلة، وعملوا بالتجارة الدولية، وشاركوا فى الحياة الاجتماعية، وصبغوا المجتمع بالصبغة الفارسية، ونشروا عاداتهم فى المأكل والمشرب والملبس، والبناء، حتى فى أعيادهم واحتفالاتهم، كما أثروا الحياة الثقافية فكان منهم العلماء والأدباء والمترجمين، الذين عكفوا على التراث الفارسى فترجموه إلى اللغة العربية، كما أدخلوا الكثير من ثقافاتهم مثل مجالس الغناء والطرب والمنادمة، ومجالس الموسيقى، وأثروا فى النثر العربى فظهر أدب التوقيعات، وعلم الحكم والأخلاق. أما الشعر فكان عربيا فى شكله ولفظه، فارسيأ فى معناه ومحتواه.

فى ظل هذا التسامح الكبير والحرية الواسعة نمى الشعور القومى لدى المسلمين من غير العرب خاصة الفرس الذين أخذوا يعبرون عنه بأشكال وصور متعددة اتخذ بعضها الطابع الثقافى كحركة الشعوبية. فتباروا مع العرب كل يمجد جنسه، ويفخر بإنجازاته وبطولاته القومية. ويبرز مثالب الآخر.

كما اتخذ طابعا سياسيا ظهر فى إحياء التقاليد الفارسية القديمة. تجلى ذلك على سبيل المثال عندما اتخذ الفضل بين سهل وزير المأمون كرسيا على محفة ويحمله أربعة من حاشيته على غرار ما كان سائدا فى عهد كسرى فارس. ولعل محاولتهم الجادة لنقل العاصمة من بغداد ذات الطابع العربى إلى مرو الفارسية فى

عهد الخليفة المأمون كانت تعبيراً عن تنامي شعورهم القومي.

في هذه الفترة المبكرة اصطدمت هذه الرغبات الجامحة نحو الاستئثار بالسلطة والنفوذ، مع السياسة العباسية التي لم تكن تسمح لهم بتجاوز حدودهم. لذلك كان مصيرهم القتل والتصفية ولعل مقتل أبي مسلم الخراساني، ونكبة البرامكة، وتصفية الفضل بن سهل وأخيه الحسن كلها دلائل تؤكد ما قلناه سابقا.

ومن هنا بدأ الفرس يغيرون من أسلوبهم . فلم يكتفوا بالمناصب العليا في عاصمة الخلافة فحسب، بل اتجهوا نحو الاستقلال بالولايات الشرقية، وأقاموا فيها حكما مستقلا، وملكا متوارثا، ولما كانت الخلافة لا تزال قوية. وقبضتها محكمة. كان هذا الاستقلال استقلالاً جزئياً إذ حرص هؤلاء العمال على إعلان ولائهم وطاعتهم للخلافة العباسية، كما حرصوا على اعتراف الخلافة بهم، فطالبوها بالخلع وعهد التقليد حتى يكسب حكمهم صفة الشرعية أمام رعاياهم. وكانوا يلتمسون ود ورضا الخلفاء بإرسال الهدايا والأموال إليهم، وتبادل الرسائل معهم، كما أن منهم من تلقب بلقب موالي أمير المؤمنين أو عمال الدولة.

أما بالنسبة لموقف الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول. فقد كانت أكثر تقديراً للظروف والواقع. إذ أدركت أن الاتساع الشاسع لممتلكاتها التي كانت تمتد من حدود الصين شرقا حتى المحيط الأطلنطي غربا. يمثل عائقا دون إحكام قبضتها على جميع ولاياتها. خاصة الولايات الواقعة في أقصى الشرق، وأقصى الغرب نظراً لبعدها الجغرافي عن عاصمة الخلافة. هذا فضلا عن تنامي الحركات الاستقلالية من قبل أهالي هذه الأقاليم، الذين دفعتهم رغبتهم في إقامة حكومات قومية تعبر عن آمالهم وطموحاتهم، إلى القيام بثورات متتالية، وامتدت حركات التمرد والاضطرابات في شرق الدولة الإسلامية وغربها على حد سواء. وقد أدركت الخلافة العباسية أن الحكم العسكري لن يجدي. كما أن استخدامها للقوة العسكرية في القضاء على هذه الثورات المتوالية. سيكلفها الكثير من الوقت والجهد

والمال، هذا فى الوقت الذى كان يجب عليها أن تتفرغ للدفاع عن حدودها، ومجاهدة الأعداء الخارجين، خاصة الدولة البيزنطية التى كانت تتربص بها، وتشن هجماتها على أسيا الصغرى، وشمال بلاد الشام.

فى ظل هذه الظروف الداخلية والخارجية سمحت الدولة العباسية بقيام دويلات مستقلة تدين لها بالولاء والطاعة. كحل أمثل للتوفيق بين مصلحة الخلافة ومراعاة لظروفها وواقعها من ناحية، وإرضاءً للنزعات الاستقلالية والقومية لدى سكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى. ليس هذا فحسب بل أن بعض هذه الدول المستقلة لعبت الخلافة العباسية دوراً رئيسيا فى قيامها لتحقق من خلالها. أهدافا عسكرية واستراتيجية كدولة الاغالبة التى أقامتها لتكون عائقا أمام المد الشيعى الفاطمى نحو الشرق، وكالدولة الحمدانية التى باركت قيامها لتكون درعاً لحماية الحدود الشمالية من خطر هجمات الروم. ونحن فى هذا السياق نتفق مع ما ذهب إليه د/ أحمد الشريف ود. حسن أحمد محمود فى كتابهما القيم : العالم الإسلامى فى العصر العباسى. بأن بعض هذه الحركات الاستقلالية كان لها جانب إيجابى لما قدمته من خدمات لصالح العالم الإسلامى، والدفاع عن حدوده. وتوسيع رقعته.

وقد تطورت علاقات الدول المستقلة بالخلافة العباسية، حسب قوتها وضعفها. ففى أوقات القوة كانت هذه الدول تدين للخلافة بالولاء والطاعة، ولكن فى العصر العباسى الثانى استغل الحكام المستقلون ضعف الخلافة وتردى أحوالها، فاستبدوا بالأمور دونها، وسيطروا عليها وساءت علاقاتهم بها إلى حد العداء السافر، والتهديد بالحرب والقتال على نحو ما سنرى.

الفصل الأول

الدول الفارسية فى بلاد المشرق الإسلامى

أولا : الدولة الطاهرية.

ثانياً : الدولة الصفارية .

ثالثاً : الدولة السامانية.

رابعاً : الدولة البويهية.

الدولة الطاهرية

(٢٠٥-٢٥٦هـ/٨٢٠-٨٧٢م)

تنسب الدولة الطاهرية إلى مؤسسها طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان، وكانوا من موالى الفرس الذين أسلموا فى العصر الأموى، ودخلوا فى خدمة الدولة الأموية، فلما قامت الدعوة العباسية استجابوا لها، وانضموا إليها، وبذلوا كل ما فى وسعهم لمساندتها - شأنهم في ذلك شأن بني جلدتهم من الفرس - وكان من الطبيعي بعد أن استتب الأمر للعباسيين، واستقرت أحوالهم أن يعترفوا بفضلهم، فقربوهم إليهم، وفتحوا أمامهم سبل الترقى في الحياة العامة سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية، وولوهم أعلى المناصب، ففي سنة ١٥٩ هـ ولى مصعب بن رزيق ولايتي يوشنج وهراه[١].

خلفه ابنه الحسين بن مصعب الذى كان يعد من "وجوه أهل خراسان" ومن صناع السياسة ليس على مستوى أقليم خراسان فحسب، وإنما على مستوى دولة الخلافة؛ وقد أورد الطبري في حوادث سنة ١٩٣ هـ نصا مهما يدل على علو مكانته، وقدرته على توجيه الأحداث لمصلحة بني جلدته من الفرس، فيقول على لسان الفضل بن سهل "استقبل الرشيد وجوه أهل خراسان وكان فيهم الحسين بن مصعب. ولقيني بعد ذلك فقال لي : الرشيد ميت أحد هذين اليومين، وأمر محمد بن الرشيد (يقصد الأمين) ضعيف، والأمر أمر صاحبك "المأمون" مد يدك، فمد يده فبايع للمأمون بالخلافة، ثم جاءه بعد أيام ومعه الخليل بن هشام فقال : هذا ابن أخي وهو لك ثقة خذ بيعته"[٢]. وهكذا استطاع الحسين بن مصعب بحنكته وخبرته أن

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى. دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٦٠.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، (دار المعارف، القاهر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)جـ٨، ص ٣٧٠.

يستشرف مستقبل الأحداث عقب وفاة الرشيد، ومهد لخلافة المأمون، وحشد أهل خراسان لتأييده ومناصرته، ولا غرو في ذلك فالمأمون كانت تجرى فى عروقه الدماء الفارسية من قبل أمه التي كانت أمة للرشيد فكان الفرس بمثابة أخواله.

فى هذه الأسرة ولد ونشأ طاهر بن الحسين، والتحق بخدمة العباسيين شأن أبيه وجده واشتهر بالبراعة في فنون الحرب والقتال، وحسن النظر فى عواقب الأمور. وقد واتته الفرصة للانطلاق فى الحياة العامة فى أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون. والواقع أن هذا الصراع لم يكن بين خليفتين فحسب. وإنما كان صراع بين عنصرين: العرب الذين وقفوا بجانب الأمين يحرضونه على عزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وتولية ابنه مكانه[1]، والفرس الذين عقدوا آمالهم على المأمون ليمنحهم المزيد من النفوذ والسلطان.

فى خضم هذه الأحداث، وجد المأمون بغيته فى طاهر بن الحسين فاختاره ليتولى قيادة جيوشه وقد أظهر براعة نادرة، إذ تمكن من الانتصار على جيوش الأمين، وقتل قائده على بن عيسى، وقطع رأسه، واستولى على أمواله وغنائمه، وأرسل إلى المأمون كتاباً يخبره فيه بهذه الانتصارات جاء فيه "أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشنؤك فداك، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدى، وخاتمه فى أصبعى، والحمد لله رب العالمين" . فنهض الفضل بن سهل وسلم على المأمون بأمير المؤمنين، وأمر بإحضار أهل بيته والقواد ووجوه أهل خراسان فدخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة، وخلع المأمون على طاهر بن الحسين ولقبه "ذا اليمينين وصاحب حبل الدين" وخلع على أصحابه وكان ذلك فى عام ١٩٥هـ[2].

واصل طاهر بن الحسين انتصاراته على جيوش الأمين، وقام بطرد عماله من قزوين، وسائر كور الجبال، وحلوان والأهواز، واليمامة والبحرين، وعمان

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ٣٨٩.

(٢) المصدر السابق، ج٨، ص ٣٩٤، ٣٩٥، ٤١٥.

والبصرة، وواسط والمدائن، وولى عماله عليها حتى تمكن من نقل المعركة إلى أبواب بغداد. وفي سنة ١٩٧ هـ حاصر الخليفة الأمين فيها، ومنع الملاحين وغيرهم من إدخال المؤن إليها، وكتب إلى القواد والهاشميين وغيرهم يدعوهم إلى الأمان وخلع محمد الأمين، والبيعة للمأمون، فانضم إليه جماعة منهم، وانتهى الأمر بهزيمة الأمين ومقتله، وأرسل رأسه للمأمون يبشره بالنصر، ودخل طاهر بن الحسين بغداد يمهدها لاستقبال الخليفة المأمون(١).

أثارت هذه الانتصارات مخاوف الوزير الحسن بن سهل من ازدياد نفوذه فأمره بالخروج إلى الرقة للقضاء على ثورة نصر بن شبث. فغضب طاهر بن الحسين وقال : "حاربت خليفة، وسقت الخلافة إلى خليفة، وأومر بمثل هذا، وإنما كان ينبغي أن يوجه لهذا قائداً من قوادى". فكان ذلك سبباً للعداوة بينهما(٢). وفي سنة ١٩٨ هـ كافأ الخليفة المأمون قائده المنتصر فولاه على الموصل والجزيرة، والشام، والمغرب، كما ولاه الشرطة وجانبي بغداد ومعاون السواد(٣).

لم يقنع طاهر بما فى يده من ولايات. إذ كان يطمع فى ولاية خراسان حيث مسقط رأسه، ومركز قوته، ونفوذه، وبها أتباعه وأنصاره، لذلك كان المأمون حريصاً فى بداية الأمر على الا يوليه هذا الإقليم خوفاً من الاستقلال به، ولكن سرعان ما استجدت أحداث أجبرت المأمون على تغيير رأيه. فقد نشبت ثورة عارمة في خراسان بقيادة عبد الرحمن المطوعي النيسابوري. وقد عجز الوالي غسان بن عياد عن القضاء عليها. ولم يجد المأمون أمامه سوى طاهر بن الحسين الذي لبى النداء، وقضى على الفتنة، وأعاد الأمن والأمان إلى الإقليم، فولاه المأمون إقليم خراسان، والجبال، وجميع البلاد شرقي بغداد، وذلك فى سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م.(٤)

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ٤٥٦، ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج٨، ص ٥٧٩، ٥٨٠.

(٣) المصدر السابق: ج٨، ص ٥٢٧، ٥٧٧.

(٤) الطبرى : المصدر السابق ، ج٨، ص ٥٧٩.

وطد طاهر بن الحسين نفوذه في خراسان، واتخذ من نيسابور عاصمة له، واستطاع أن يؤسس أول إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية في المشرق، وأقام حكماً متوارثاً لأبنائه من بعده، وقد أحسن السيرة في رعيته، وأصلح البلاد، وأمن العباد، واهتم بالعلوم والعلماء. فكانت نيسابور في عهده مركزا من مراكز الحضارة الإسلامية.

ومن ناحية أخرى فقد كان موفقاً في رسم حدود علاقاته بالخلافة العباسية ففي الوقت الذي حرص فيه على الاستقلال بولايته. فقد أعلن الولاء والطاعة للخليفة العباسي. وحافظ على تبعيته له. فكان يذكر اسمه على المنابر في الخطبة وفي السكة، كما حرص على دفع الخراج سنويا لخزينة الدولة، وسمح للخلافة بأن تبث عيونها وجواسيسها وعمال بريدها في أنحاء دولته لجمع أخباره، ورصد أعماله[1]، ولكن يقال أنه قد عزم في نهاية أيامه على الاستقلال بولايته نهائيا، وأسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة في أخر جمعة صلاها سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م. ولكنه لم يلبث أن توفي بعدها مباشرة. [2]

خلف طاهر بن الحسين ابنه طلحة لمدة سبع سنوات، ثم أخاه عبدالله سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م. وعلى الرغم من مخاوف العباسيين من نفوذ الطاهريين، إلا أن الخليفة المأمون أقرهما على الولاية الواحد تلو الآخر. ولم يفكر في انتزاع الحكم منهما خوفا مما قد يثيره ذلك من اضطرابات وفتن خاصة وأن الطاهريين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي، وسلطان كبير، وعصبية واسعة في الإقليم، وقد استفاد الطاهريون من ذلك فتفرغوا لتوسيع حدود دولتهم التي امتدت من حدود دولة الخلافة غربا حتى الحدود الهندية شرقا فشملت بذلك خراسان والري وكرمان. [3]

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، ص ٦٢.

(٢) الطبري : المصدر السابق، ج٨، ٥٩٤؛.

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت، ج٢، ص ٢٨.

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٧، ٨.

كما حرص هؤلاء الأمراء على تحسين علاقاتهم بالخلافة العباسية، وكسب ثقتها، وتعاونوا معها للقضاء على الفتن والثورات المناوئة لها. [1] ولم يفكروا في الاستقلال عنها. خاصة عبدالله بن طاهر الذى ولاه المأمون في حياه أبيه مصر. وكانت تغلي بالفتن والثورات. فقضى عليها وأصلح أحوالها. ونشر الأمن والأمان بها. فدان له أهلها بالولاء والطاعة[2]. وقد أراد المأمون أن يختبر إخلاصه، خاصة بعد أن أدعى عليه بعض الوشاه أنه يميل إلى ولد على بن أبى طالب، فدس له رجلا متنكرا في هيئة القراء والنساك ليدعوه إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، وكان من كبار العلويين بمصر، ومعروفا بفضله ومناقبه وعلمه، وكان المأمون قد أمره أن يسبر غوره، ويتعرف عليَّ دخيلة نفسه، ودفين نيته. ويبلغه برده، وكان رد عبد الله بن طاهر مثالاً في الإخلاص والاعتراف بفضل الخلافة عليه، جاء فيه "فتجئ إلى وأنا فى هذه الحالة التى ترى، لى خاتم فى المشرق جائز، وفى المغرب كذلك، وفيما بينهما أمرى مطاع، وقولى مقبول، ثم ما التفت يمينى ولا شمالى وورائى وقدامى إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها عليَّ، ومنه ختم بها رقبتى، ويداً لائحة بيضاء ابتدانى بها، تفضلاً وكرماً، فتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة، وهذا الإحسان، وتقول: أغدر بمن كان أولاً وآخراً، واسع فى إزالة خيط عنقه، وسفك دمه، تراك لو دعوتنى إلى الجنة عيانا من حيث أعلم، أكان الله يحب أن أغدر به، وأكفر إحسانه ومنته، وأنكث بيعته؟ فسكت الرجل، وجاء إلى المأمون فأخبره بما كان منه فاستبشر وقال : "ذلك غرس يدى، وإلف أدبى، وترب تلقيحى". [3]

ظل عبد الله بن طاهر عند حسن ظن الخلافة به، فقضى على ثورة نصر بن شبث العقيلى فى الرقة، وعلى الحركات العلوية بخراسان بعد أن ولى عليها سنة

---

(١) الطبرى : المصدر السابق، ج٨، ص ٥٨١، ٥٩٥، ٦٠٠، ٦١٠، ٦١٣.

(٢) أحمد الشريف وأخرون: العالم الإسلامى فى العصر العباسى (الطبعة الخامسة)، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٤٥٥.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ٦١٥، ٦١٦.

٢١٤هـ/ ٨٢٩م، كما قضى على فتنة ابن السرى فى مصر[١]، وعندما استولى الربضيون[٢] على الإسكندرية، استجاب لدعوة المأمون فتوجه إلى مصر ونجح فى إجلائهم عنها، وعن جميع ممتلكات الخلافة العباسية، وفى عهد الخليفة المعتصم عندما شق المازيار بن قارن عصا الطاعة على الخليفة بتحريض من الأفشين، استطاع عبد الله بن طاهر كشف المؤامرة، وأطلع عليها الخليفة، وأرسل جيوشه إلى قتال المازيار حتى قبض عليه وأرسله إلى سامراء[٣].

قدر العباسيون خدمات الطاهريين فقربوهم، وناصروهم فى نزاعهم مع الصفاريين، وأبقوا شرطة بغداد فى أيديهم حتى سنة ٣١٠هـ/ على الرغم من زوال ملكهم فى خراسان[٤].

تغيرت هذه الصورة تماما فى عهد محمد بن عبد الله بن طاهر أخر حكام الدولة الطاهرية. فقد كان محباً للهو والصيد، فضعفت الدولة فى عهده، وعجز عن تدبير أمورها. وقامت ضده عدة فتن وثورات انتهت باستنجاد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفارى، الذى استغل هذه الفرصة، وانقض على الدولة الطاهرية فأسقطها سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م[٥]، واستولى على نيسابور وهراه وبوشنج، وأقام على أنقاضها الدولة الصفارية.[٦]

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ٦١٠.

(٢) الربضيون هم سكان حى الربض أحد أحياء قرطبة بالأندلس، كانوا قد ثاروا على حاكمهم فطردهم من بلاده، فاتجهوا إلى الإسكندرية ودخلوها. وصادف ذلك فتنة الأمين والمأمون، فأيدوا الأمين ضد المأمون. فلما ولى المأمون الخلافة بعث إليهم عبدالله بن طاهر فحاصرهم، ونجح فى إجلائهم عن الإسكندرية، بعد أن تعهدوا له بألا ينزلوا فى مكان يتبع الخلافة وأملاكها (المؤلف).

(٣) أحمد الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ٤٥٦.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

(٥) عصام الدين عبد الرؤوف : الدولة الإسلامية المستقلة فى المشرق، ص٨.

(٦) أبو الفدا : المختصر أخبار البشر، ج٢، ص ٤٤.

الدولة الصفارية

(٢٥٤-٢٨٩هـ/ ٨٦٧-٩٠٣م)

فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى اجتاحت منطقة فارس وسجستان موجه من الاضطرابات والفوضى، فقد ساءت أحوال الخلافة العباسية، وضعفت قبضة الدولة الطاهرية، فطمع كثير من الأمراء المحليين، ومن الخارجين فى اقتطاع أملاكها، ونشطت ثورات الخوارج، كما تعرضت حدود الدولة الشرقية والشمالية لهجمات جيرانها من الترك والهنود والديلم(١).

فى هذه الظروف السياسية المضطربة ظهرت على ساحة الأحداث طوائف المطوعة، وأصلها المتطوعة؛ وهم فى البداية كانوا جماعات من المجاهدين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله، ونشر الإسلام، وارتحلوا إلى الثغور لقتال الكفار والملاحدة. وسرعان ما اتسع نشاطهم لقتال الخارجين على الدولة العباسية. وانضم إليهم أعداد غفيرة من أهالى البلاد الساخطين على الأوضاع. إذ رأوا فيهم منقذا لهم من الفوضى والاضطرابات فتحولوا بذلك إلى تشكيلات شعبية عسكرية، لها نظام نقابى على غرار النقابات الحرفية فى بغداد، واكتسب زعماؤهم شهرة واسعة، ونالوا اعتراف الجهات الرسمية، ومن بين صفوف هذه الطوائف انبعثت الدولة الصفارية(٢).

مؤسس هذه الدولة هو يعقوب بن الليث الصفارى، نشأ فى مدينة قرنين بسجستان فى أسرة فقيرة، عمل فى بداية حياته صفاراً (أى فى صناعة الأوانى

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، ص ٦٤، ٦٥.
أحمد الشريف وآخرون : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ٤٥٧.

(٢) بارتولد : تركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى، نقله عن الروسية : صلاح الدين عثمان هاشم ، (قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٤٠١/١٩٨١م)، ص ٣٣٩.

النحاسية)[1] وكان يتقاضى فى الشهر خمسة عشر درهماً، أما أخوه عمرو فقد كان مكاريا يعمل بإكراء الحمير، وأخواه طاهر وعلي فلم يكونا أحسن حالا منهما. فلما ساءت أحوالهم انضموا إلى خالهم كثير بن دقاق وكونوا عصابة لقطع الطريق. والواقع أن هؤلاء لم يكونوا لصوصاً بالمعنى التقليدى الشرير، وإنما كانوا متمردون، ثائرون علي مجتمعهم وظروفهم، سُدت فى وجوههم السبل المشروعة للكسب والحياة الكريمة، فلم يجدوا إلا قطع الطريق سبيلاً للتعبير عن قضيتهم، ورفضهم لأوضاعهم السياسية والاقتصادية.

وفى رحلتهم للبحث عن ذاتهم وتحقيق طموحاتهم، برزت طوائف المطوعة بقيادة صالح بن النضر الكناني. فانضموا إليها، وانخرطوا في صفوفها. وبرزوا بين أقرانهم، وخاضوا حروبا ضارية مع خوارج سجستان قُتل فيها أخوهم طاهر[2].

تحولت سجستان إلي ساحة للحروب والصراعات، فاضطر واليها من قبل الطاهريين إبراهيم بن الحسين إلى مغادرة البلاد، فوقعت في أيديهم. وتوفى صالح بن النضر؛ فخلفه درهم بن الحسين الذى أصبح الزعيم الفعلي لسجستان، وعين يعقوب بن الليث حاكما على ولاية بست. فذاع صيته، والتف حوله الناس لشجاعته واقدامه وتواضعه. حتى أن أهل خراسان أرسلوا إليه يستنجدون به لتخلصيهم من الفوضى التى حلت ببلادهم فى أواخر أيام الدولة الطاهرية، فسار إليهم، ودفع الضر عنهم، كما حاول القضاء على الخوارج بالحرب تارة، والمهادنة تارة أخرى حتى نجح فى ضم أغلبهم إلى صفوفه. فقام الأهالي وملكوه أمرهم. أما درهم بن الحسين فقد تنازل له عن زعامة سجستان، واكتفى بأن ينضم إلى صفوف أصحابه[3].

---

(١) أبو الفدا : المختصر أخبار البشر، ج٢، ص ٥٢.

(٢) بارتولد : المرجع السابق، ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٣) أبو الفدا : المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢.

كانت سجستان هى نقطة الإنطلاق لفتوحاته التى شملت نيسابور، ومرو وبلاد فارس، وخراسان، وولايتى بوشنج وهراة، ومكران، وكرمان، وطبرستان، والرى، وقزوين، وأذربيجان، وجند نيسابور، والأهواز، وحدود السند وغيرها مكوناً بذلك مملكة ممتدة الحدود واسعة الأرجاء فى شرق الدولة الإسلامية[١].

أما عن سياسة الداخلية فقد أجمعت المصادر التاريخية على وصفه بأن "كان عاقلا حازما"[٢]، وتجلى ذلك في حرصه على تدعيم مركزه. فوجه عنايته للنهوض بمملكته، وأحسن تدبير أمورها، وتحصين حدودها، والإحسان إلى رعيته، وعمارة أرضه فكثرت أمواله، وعمرت خزائنه. فقد وجد بخزائنه عقب وفاته أربعة آلاف ألف من الدنانير، وخمسون ألف ألف من الدراهم، فضلا عما كان يملكه من الخيول والجمال. كما اهتم بتقوية جيوشه، وتنظيم صفوفه، وإمداده بالمال والعتاد، وكان جنوده يتسلمون الخيول والإعلاف من خزائنه بصفة دورية، فدانوا له بالولاء الكامل، والطاعة التامة[٣] يقول المسعودى "كانت سياسة يعقوب لمن معه من الجيوش، سياسة لم يُسمع بمثلها ممن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف وحسن انقيادهم لأمره. واستقامتهم على طاعته، لما كان قد شملهم من إحسانه، وغمرهم من بره، وملأ قلوبهم من هيبته". [٤]

حرص يعقوب على إضفاء الهيبة على دولته. فاتخذ نظما ورسوماً على غرار ما كان متبعاً فى دولة الخلافة، ففى المناسبات الرسمية، وعند استقباله للسفراء، كان يحيط به حرسه بأبهى زى وأثمن زينة، وكان مكونا من كتيبتين تضم كل واحدة ألف رجل. وكان جنود الكتيبة الأولى يحملون أعمدة من الذهب، أما

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ٥٢، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥١.

(٢) المصدر السابق : ج٢، ص ٥٢.

(٣) بارتولد : المرجع السابق، ص ٣٤٤.

(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص ٤٧٥.

جنود الكتيبة الثانية فيحملون أعمدة من الفضة.

أما عن حياته الخاصة فقد ظل يعقوب بن الليث جنديا بسيطا متواضعا في مظهره، فكان يلبس القطن، ويجلس على الأرض، ويتوسد ذراعه عند النوم(١). ويأكل الخبز والبصل(٢). وأكثر نهاره يقضيه خاليا بنفسه يفكر فيما يريد، ولا يُطلع أحدًا على سره أو عزمه أو تدبيره، بل كان يُظهر غير ما يضمر ولا يشرك أحداً فيما يريده براى.

أما عن علاقاته بالخلافة العباسية. ففي البداية حرص على كسب ود الخلافة حتى تعترف به واليا على دولته، فيثبت بذلك مركزه، ويكتسب شرعية لحكمه، فأعلن طاعته لها. وأهدى إليها الهدايا دليلاً على تبعيته وولاءه. وتبادلت الرسائل بينهما فكان يبلغها بأخبار انتصاراته وفتوحاته، التي حرص على أن يكسبها طابع الجهاد في سبيل الإسلام، والدفاع عن حدود الدولة ضد الخارجين عليها. ففي سنة ٢٥٥ هـ "كتب يعقوب بن الليث إلى الخليفة بطاعته، وأهدى له هدية جليلة منها عشرة بزاه بيض، ومائة من من المسك"(٣). كما أرسل أصناماً أخذها من كابل دليلا على جهوده في معركة نشر الإسلام، وقد جاءت هذه السياسية بنتائجها المرجوة عندما أقرته الخلافة على ما بيده من بلدان.

غير أن الخلافة العباسية كانت تتابع فتوحاته وتوسعاته بمزيد من الخوف والقلق فحاولت الحد من نفوذه، وإثارة العقبات في طريقه. فعندما استولى على مدينة كرمان، قام الخليفة المعتز بالله بمنح هذه الولاية له ولخصمه على بن الحسين والى فارس في نفس الوقت. يريد بذلك إغراء كل منهما بالآخر أملاً في التخلص منهما. ولكن يعقوب انتصر على خصمه واستولى ليس على كرمان فحسب، بل

---

(١) بارتولد : تركستان ، ص ٣٤٤.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ٥٢.

(٣) المصدر السابق، ج٢ ص ٤٥، ٤٨.

وعلى فارس أيضا، وأرسل إلى الخليفة يسأله أن يوليه عليها مقابل خراج قدره خمسة عشر ألف ألف درهم، ويخطب له على منابرها، ولم يجد الخليفة بداً من الخضوع لأمره فأقره على فارس[1].

أثار اصطدام يعقوب بن الليث بالطاهريين، وسيطرته على نيسابور عاصمة ملكهم غضب الخلافة العباسية، لاسيما وأن الدولة الطاهرية كانت تحظى بعطف الخلافة لطاعتها لها، وتعاونها معها. فاعتبرت ذلك تحديا لارادتها، واستهانة بشأنها. خاصة وأن يعقوب عندما دخل نيسابور وأسر آخر الحكام الطاهرين محمد بن طاهر الذى أرسل إليه يسأله بقوله "إن كنت أتيت بأمر أمير المؤمنين، فأرنى عهدك ومنشورك حتى أسلمك الولاية، وإلا فعد من حيث أتيت، فكان رد يعقوب أن سحب السيف من تحت مصلاته وقال : هذا عهدى ولوائى".[2]

كان رد الخلافة على ذلك أن أرسلت إليه رسالة مفادها "إن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذى ولاه إياه، وإن لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره، فليرجع، فإن فعل كان من الأولياء، وإلا لن يكن له إلا ما للمخالفين". ولكن لم يجد ذلك نفعاً إذ واصل يعقوب تحديه للخلافة معتمداً على قوة جيشه وطاعة جنده. مما اضطر الخليفة المعتمد على الله أن يجمع حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان (رعايا مملكته) وقرأ عليهم كتابا بلعن يعقوب وتقبيح أعماله، مستهدفا بذلك إثارة الرأى العام ضده، ونزع شرعية حكمه أمام رعيته[3].

وبقدر قسوة هذا التصرف كان رد فعل يعقوب الذى هدد بالزحف على بغداد، ومحاربة الخلافة. وتقدم فعلا إلى الأهواز. مما اضطر الخلافة إلى التراجع عن

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(٣)أحمد الشريف وآخرون : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ٤٦٠.

موقفها. وأبدت محاولات جادة لإرضائه فعينته على شرطة بغداد وسامراء. ورضوخاً لأمره اضطر الخليفة أن يجمع الحجاج الذين أعلن عليهم لعن يعقوب وعزله عن دولته لخروجه على الخلافة، وأن يذيع فيهم منشوراً يعلن فيه رضاه عن يعقوب، وإقرار حكمه.

أسفرت هذه التنازلات من قبل الخلافة عن ازدياد أطماع الصفار الذى أدرك ضعف الخلافة وعجزها عن مقاومته. ولعل ذلك يرجع إلى حرج موقفها بسبب ثورة الزنج التي كانت تهدد جنوب العراق والبصرة. فرأى أن يستغل هذه الظروف ليفرض قوته على دولة الخلافة. فخرج على راس جيشه متوجها إلى بغداد لمحاربة الخليفة. الذى لم يجد مناصاً لمواجهته فخرج على رأس حملة عسكرية بقيادة أخيه الموفق بالله طلحة. والتقى الجيشان فى معركة دامية انتهت بهزيمة يعقوب بن الصفار وخسر غنائم كثيرة حازها جيش الخلافة.

والواقع أن يعقوب بن الليث لم يكن موفقا فى هذه الخطوة إذ اعتمد فى محاربته للخلافة على كثرة جيشه، وطاعتهم له. ونسى أن هؤلاء الجنود كانوا أصلاً من المتطوعين لنصرة الخلافة . وقد انضموا للصفار بهدف الدفاع عنها ضد الخارجين عليها. وأن قلوبهم لا تزال عامرة بهيبة الخليفة والولاء له. فلما رأوا أنفسهم فى مواجهة جيش الخلافة ويقوده الخليفة بنفسه تخاذلوا عن الصفار. بل هاجموه فى صفوف الخلافة، خاصة بعد أن سمعوا بأنفسهم لعن الخلافة للصفار، واعتباره خارجا على أمير المؤمنين ومنكراً للنعم وساعيا للفساد. (١)

لم يكن يعقوب بن الليث الصفار بالشخص الذى تضعفه هذه المحن. فعاد إلى بلاده يجمع شتات جيشه ويستعد لمواصلة الصراع مع دولة الخلافة لفرض قوته ونفوذه عليها. وكانت الخلافة غير قادرة على مواصلة الحروب معه. خاصة مع تفاقم ثورة الزنج لذلك فقد رأت استمالته كسبا للوقت فأسل الخليفة المعتمد إليه

---

(١) أحمد الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ٤٦١، ٤٦٢.

"رسولاً وكتابا يستميله، ويعقوب مريض فأحضر الرسول ، وجعل عنده سيفا ورغيفا من الخشكار وبصلاء وقال للرسول : قل للخليفة إن مت فقد استراح مني، واسترحت منه، وإن عوفيت فليس بيني وبينه إلا هذا السيف، وإن كسرني وافقرني عدت إلى أكل هذا الخبز والبصل"[1]. ولكن لم يلبث أن توفي.

ورثه أخوه عمرو بن الليث بعد أن نصبه جنود أخيه خلفاً له[2]. وقد أدرك منذ البداية أن سلطانه لن يقوم إلا على السيف كسلطان أخيه، لذلك تركزت سياسته الداخلية حول محورين أساسيين هما :

أولاً : النهوض بالأحوال الاقتصادية، وتنظيم سياسته المالية بما يضمن له الحصول على الأموال اللازمة لتحصين مملكته، والدفاع عنها، ومواصلة فتوحاته. ولم يتورع عن مصادرة الأغنياء لتحقيق هذا الغرض، فذخرت خزائنه بالمال. ويذكر بارتولد في كتابه عظيم الفائدة المسمى بـ "تركستان" أنه كان يملك ثلاث خزائن الأولى : تضم الأموال المجموعة من خراج الأرض، وكان يستعمل هذا المال في نفقة جيشه، والثانية : تضم الأموال المجموعة من أملاكه الخاصة، وكانت تصرف على متطلبات بلاطه، والثالثة : تضم الأموال المجموعة من مصادرة أملاك أعدائه، وخصومه. ومنها يوزع الصلات على المخلصين من رجال دولته، ومراسم استقبال السفراء وغيرها.

ثانياً : العناية بالجيش، وحسن تدريبهم، وتفقد آلاتهم وأدواتهم، وصرف أرزاقهم كل ثلاثة أشهر وسط عرض مهيب على غرار عرض الجيوش عند الفرس الساسانيين في عهد كسرى أنو شروان.

ثالثاً : تفقد رعيته ومراقبة عماله وقواده، والعلم بكل ما يجري في أرجاء

---

(١) أبو الفدا : مختصر أخبار البشر، ج٢، ص ٥٢.

(٢) المصدر السابق والصفحة.

مملكته معتمدا في ذلك على أعداد كبيرة من الجواسيس والرقباء الذين بثهم في كل مكان. وفي هذا الصدد يروي "أنه اشترى غلمانا أحداثا ورباهم على طاعته والانقياد التام له. ثم أهداهم إلى كبار رجال دولته فكانوا يبلغونه بكل ما يقوم به أسيادهم، والعجيب أنه فرض على أسيادهم ألا يعاقبون هؤلاء الغلمان إلا بإذنه".(١) وبذلك تمكن عمرو من إحكام قبضته على بلاده، وبسط نفوذه لذلك قيل بإن "خراسان لم تر منذ زمن طويل حاكما في كفاءة عمرو وحسن سياسته".

أما عن علاقاته بالخلافة العباسية فقد أعلن طاعته لها، وحرص على التقرب إليها بالهدايا. فأقرته على ما بيده من بلاد. وأرسل إليه الخليفة التقليد بولاية خراسان وفارس واصبهان، وسجستان والسند وكرمان، وأرسلت إليه العهد والخلع واللواء(٢)، كما أسندت إليه شرطة بغداد مما قوى من نفوذه. وكان هذا الموقف المتساهل من قبل الخلافة معه بسبب مشاكلها الداخلية. وصراعها مع الزنج تارة، ومع أحمد بن طولون ورغبته في الاستقلال بمصر تارة أخرى. فلم تشأ ن تفتح جبهة جديدة للصدام معه. لذلك رأت أن تستميله حتى تعد العدة لمواجهته. وبالفعل ما أن تخلصت الخلافة من هذه المشاكل حتى وجهت اهتمامها للقضاء على نفوذ الصفاريين، فأصدر الخليفة المعتمد قراراً بعزل عمرو بن الليث عن البلاد انتى تولاها. وأصدر كتابا بلعنه أمام حجاج خراسان ، كما أمر بلعنه على المنابر، وبعث إليه جيوشا حاربته وانتصرت عليه سنة ٢٧٤هـ. (٣)

لما تولى المعتضد عرش الخلافة سنة ٢٧٩هـ أرسل إليه عمرو بن الليث هداياه معلنا ولاءه وطاعته ويسأله الاعتراف به حاكما على خراسان. فهادنه الخليفة وأجابه إلى ما سأل، وأرسل إليه اللواء حيث نصبه في قصره بنيسابور لمدة ثلاثة

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢) ابو الفدا : مختصر أخبار البشر، جـ٢، ص ٥٢.

(٣) بارتولد : تركستان، ص ٣٤٥.

أيام كبرهان ملموس على رضا الخليفة، وشرعية حكمه. ولكنه لم يقنع بذلك فأرسل إلى الخليفة مرة أخرى يطلب ولاية بلاد ما وراء النهر. وكانت بيد السامانيين. فاجابه إلى طلبه. وكان يهدف من ذلك هو أن يعرضه لصدام مع تلك القوة النامية في بلاد ما وراء النهر، وبالفعل رفض الأمير الساماني أن يسلم الإقليم له، واشتبك معه في معركة ضارية انتهت بهزيمة عمرو، ووقع أسيرا في قبضة خصمه سنة ٢٧٨/ ٩٠٠م بعد أن تمزق جيشه. وسيق إلى بغداد وظل بها حتى وفاته سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م[١].

آل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م. ولكنه كان صبيا صغيرا انصرف للهو واللعب. فاستبد سبك السبكري - غلام عمرو بن الليث، بالسلطة دونه. ثم ألقى القبض عليه وعلى أخيه يعقوب وأرسلهما إلى بغداد مستقلا بحكم الدولة الصفارية. ولكن لم تصف له الأمور إذ تمكن الليث بن علي بن الليث والي فارس من السيطرة على البلاد، وطرد السبكري منها. ولكنه تمكن بمساعدة الخليفة المقتدر من استعادة البلاد. فلما امتنع عن دفع الأموال التي تعهد بدفعها للخلافة عملت على التخلص منه وانتزعت منه اقليم فارس. فلجأ إلى سجستان. حيث اصطدم بالسامانيين. وقبض عليه الأمير أحمد بن إسماعيل الساماني وأرسله ومعه بقية أمراء البيت الصفاري إلى بغداد. وبذلك زالت الدولة الصفارية بعد عمر قصير لم يتجاوز خمسا وثلاثين سنة.[٢]

---

(١) أحمد الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) عصام الدين عبد الرؤوف . الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، ص ١١، ١٢.

الدولة السامانية

(٢٦١-٣٨٩هـ/ ٨٧٤-٩٩٩م)

قامت الدولة السامانية على انقاض الدولة الصفارية فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، وهم ينتسبون إلى جدهم سامان الذى ينتهى نسبة إلى بهرام جور كسرى فارس المعروف. وكان لأسد بن سامان أربعة أبناءهم هم نوح وأحمد ويحيى وإلياس. نشأوا نشأة عسكرية وتدربوا على فنون الحرب والقتال. وقد تجلت براعتهم القتالية فى عهد هارون الرشيد حيث نجحوا فى القضاء على ثورة رافع بن الليث فى خراسان، وفى عهد المأمون بزغ نجمهم وذاع صيتهم فأكرمهم، وقربهم واستعملهم فولى نوح سمرقند سنة ٢٠٤هـ، وأحمد فرغانة، ويحيى الشاش وأشروسنة، والياس على هراه، وقد أقرهم الطاهريون على هذه الأعمال[١]، خاصة بعد أن لمسوا حرصوهم على نشر الأمن والأمان فى أعمالهم، والإحسان إلى رعيتهم، فضلا عن توطد أواصر علاقات الود والصفاء بينهم يتجلى هذا عقب وفاة نوح أمير سمرقند. فانتقلت الإمارة بشكل سلمى إلى أخيه أحمد بن أسد فلما مات خلفه عليها ابنه نصر بن أحمد سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م.

بدأت الدولة السامانية تتضح معالمها فى عهد الأمير نصر بن أحمد خاصة بعد أن ولاه الخليفة العباسى المعتمد بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ وفوض إليه حكم البلاد الممتدة من شواطئ جيحون إلى أقصى بلاد المشرق، فاتخذ من سمرقند عاصمة له، ولم يلبث إن ازداد نفوذه. وذاع صيته حتى استنجد به أهل بخارى ليخصلهم من الفتن والثورات التى اجتاحت بلادهم. فولى أخاه إسماعيل بن أحمد عليها. فشرع فى قمع الثورات، وواجه دسائس المتمردين وعصابات اللصوص من الفلاحين الذين ساءت أحوالهم فلجأوا إلى اللصوصية وقطع الطريق تعبيراً عن

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ٥٠.

سخطهم وتذمرهم. ونجح إسماعيل فى نشر الأمن وأعاده الأمور إلى نصابها، ومما ساعده على توطيد نفوذه وسلطانه اعتراف الخلافة العباسية بإمارته. (١)

تعرضت العلاقة بين نصر وأخيه إسماعيل لبعض التوتر بسبب عجز إسماعيل عن دفع الخراج المتفق عليه إلى أخيه، وذلك بسبب حروبه المتتالية، ونفقات جيشه الكثيرة، فاعتقد نصر أنها محاولة من قبل أخيه للاستقلال ببخارى عن دولته، وتفاقم الأمر بينهما إلى حد القتال سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م انتهى بهزيمة نصر، ووقوعه أسيراً في يد أخيه إسماعيل الذى عامله بكل تسامح وعفو، وسارع بإرساله معززا مكرما إلى عاصمته سمرقند حفاظا على هيبته ومكانته، وظل نصر الرئيس الأعلى لهذه الدولة حتى وفاته سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م. (٢)

آلت زعامة البيت السامانى إلى الأمير إسماعيل بن أحمد سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م، وقد أقره الخليفة العباسى على بلاد ما وراء النهر، وأرسل إليه العهد والخلع فتم الاعتراف به فى جميع أنحاء البلاد. ولكنه سرعان ما اصطدم بأطماع الأمير الصفارى عمرو بن الليث الذى أجبر الخلافة العباسية على عزل إسماعيل وتوليته بلاد ما وراء النهر، ووجهت إليه بالخلع والعهد. وفى نفس الوقت ظلت تشجع إسماعيل سراً على استعادة الإقليم تحت نفوذه. وربما كانت تقصد من ذلك الوقيعة بينهما للتخلص منهما أو من أحدهما على الأقل وإضعاف الآخر، لاسيما ولأنها كانت قد ضاقت ذرعاً بتزايد نفوذهما. وتعاظم قوتهما فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية. وقد حاول إسماعيل السامانى فى البداية أن يثنى عمراً عن مقصده ونصحه بأن يقنع بما فى يده، ويترك له بلاد ما وراء النهر. فأبى الأمر الذى أدى إلى نشوب الحرب بينهما. وقد انتهت بهزيمة عمرو بن الليث

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٨٢.

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق والصفحة.

وأسره وأرسله إلى بغداد ليظل بها حتى وفاته. فكان هذا بداية النهاية للدولة الصفارية، أما الجيوش الصفارية فقد أمر إسماعيل الساماني بإطلاق سراح جميع الأسرى بدون فداء، كما حرص على استمالة قلوبهم بكرم أخلاقه، وجود يده فانضموا إليه. وقد أعلنت الخلافة ترحيبها بانتصاره، وأقرته على بلاد ما وراء النهر، فقام بدوره وأعلن طاعته وأخلاصه للخلافة[1].

وجه إسماعيل بن أحمد عنايته نحو توطيد أركان دولته وتوسيع نطاقها فأضاف إلى ممتلكاته فارس وخراسان وطبرستان والري وقزوين. ويضيف المقدسي فيقول "وأضاف إليه المعتضد سنة ٢٨٧هـ كرمان وجرجان، وأضاف إليه المتقي سنة ٢٩٠هـ الري والجبال إلى عقبة حلوان".[2] وصد عدوان الأتراك الشرقيين ونشر العدل والأمان والاستقرار، وتحسنت أحوال رعيته، وامتلكوا الأراضي بمساعدة الحكومة، كما ازدهرت الصناعات والتجارات. وحققوا اكتفاءاً ذاتياً يقول الاصطخري واصفاً الحالة الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر في العصر الساماني "ما وراء النهر من أخصب أقاليم الإسلام وأنزها وأكثرها خيراً.. وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى أو مباخس أو مراع لسائمة، وليس شئ لابد للناس منه إلا وعندهم منه ما يقيم أودهم، ويفضل عنهم لغيرهم. فاما أطعمتهم فمن السعة والكثرة على ما ذكرناه... أما الملبوس ففيها من ثياب القطن ما يفضل عنهم حتى ينقل عنهم إلى الأفاق... وأما فواكههم فترى من كثرتها مايزيد على سائر الأفاق حتى يرعاها لكثرتها دوابهم. [3]

كما شهدت البلاد في عهده نهضة علمية وثقافية ومعمارية كبرى، فكانت

---

(١) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص ٥٨.
بارتولد : تركستان، ص ٣٥١، ٣٥٢
(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٣٧.
(٣) الاصطخري : المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٦١، ١٦٢.

قصور الأمراء السامانيين قلاعاً للعلم، ومقصداً للعلماء يفدون إليهم من شتى البقاع، فيحصلون على الهبات السنية، والعطايا الوفيرة[1]، كما تمتعت البلاد بنظم إدارية محكمة مكنت الدولة السامانية أن تحتفظ بمقاليد الأمور أكثر من قرن وربع من الزمان. وفي ذلك يقول صاحب المختصر "كانت دولة بني سامان قد انتشرت وطبقت كثيراً من الأراضي، وكانت من أحسن الدول سيرة وعدلا"[2].

أخذت الدولة السامانية فى الضعف والتدهور عقب وفاة الأمير إسماعيل بن أحمد حيث توالى على حكمها عددٌ من الأمراء الضعفاء، مما أعطى الفرصة لازدياد نفوذ رجال الحرس، والجنود العسكريين، ونشوب الثورات، والحركات الاستقلالية، الأمر الذى أدى فى النهاية لإضعاف الدولة وزوالها.

بدأت مرحلة الضعف فى عهد الأمير أحمد بن إسماعيل الذى خلف أباه على الحكم سنة ٢٩٤-٣٠١هـ/ ٩٠٧-٩١٤م وقد عرف بتقواه وورعه وميله إلى اللغة العربية حتى اتخذها لغة رسمية للدولة – على عكس اسلافه الذين عملوا على إحياء اللغة الفارسية الجديدة واتخذوها لغة الفكر والثقافة – وفى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٤م. خرج إلى البر متصيداً فهجم عليه جماعة من غلمانه ونبحوه وهربوا[3].

خلفه ولده أبو الحسن نصر الثانى بن أحمد، وكان صبياً صغيراً فى الثامنة من عمره. فاستأثر بالسلطة دونه كل من الوزير أبو على محمد بن أحمد الجيهانى، وقائد الجيش حموية بن على، وقد تمكنا من إعادة الأمور إلى نصابها، وإخماد العديد من الفتن والثورات التى نشبت فى البلاد. وقد عرف الأمير نصر الثانى بشدة الغضب حتى اضطر عملا بنصيحة الوزير البلعمى، والعميد المصعبى إلى إصدار قراراً ينص على عدم تنفيذ أوامره بالإعدام أو العقوبة المشددة إلا بعد مضى ثلاثة

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ٦٧.

أيام على إصدارها. وقام بتعيين شيوخ مهمتهم الشفاعة لديه لمن حاق بهم غضبه. وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فقد قام بتصفية كبار رجال دولته(١).

كان من أخطر الثورات التي شهدها عهده ثورة العلويين في نيسابور وطبرستان، ولعل خطورتها تكمن في أنها مست شخص الأمير، وتورط فيها شخصيا. ففي عهده نشطت الدعوة الإسماعيلية في خراسان متزامنة مع قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي فحاربهم وانتصر عليهم وقتل قائدهم سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م. وعلى الرغم من ذلك فقد أخذ الدعاة يتوالون على خراسان وبلاد فارس لنشر دعوتهم، وكان من أخطرهم محمد بن احمد النخشبي أو النسفي الذي أحرز نجاحا كبيرا في دعوته وجذب عدد من الأعيان، ورجال حرس البلاط لمذهبه وبمعاونتهم وجد طريقه إلى قصر الأمير الذي بدأ يبدي تعاطفا مع مذهبه، والدليل على ذلك أنه عندما قام أهل نيسابور بمبايعة أبا الحسين محمد بن يحيى العلوي خليفة لهم، استدعاه الأمير نصر الثاني إلى بخارى، وتحفظ عليه بعض الوقت، ثم أطلق سراحه ، وانعم عليه، ومنحه معاشا وفيرا، كما وافق الأمير الساماني على دفع دية أحد الدعاة العلويين عقب مقتله في سجن بخارى للخليفة الفاطمي القائم .

أثارت هذه الميول العلوية غضب أهل السنة، وقاده الحرس التركي، فدبروا مؤامرة لعزل الأمير نصر الثاني وتولية الاسفهسلار الأكبر وهو حاجب الحجاب وكان من أكبر الشخصيات في البلاط الساماني، فلما علم الأمير نصر وابنه نوح بتفاصيل هذه المؤامرة قاما بقطع رقبة المتآمرين. ثم جمع قادة الجيش في مأدبة، واذاع عليهم تفاصيل المؤامرة، وألقى إليهم رأس زعيمهم. ثم أعلن تنازله عن العرش لابنه نوح الذي لم يتهمه أحد بالتشيع. وإزاء هذه المفاجأة لم يكن أمام قادة الجيش سوى الإذعان والخضوع. ولإثبات نواياه السنية ومحاربته للمذهب الشيعي قام الأمير نوح بإلقاء القبض على أبيه ووضع الاغلال في يديه، وأخذه إلى القلعة.

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٧.

وأمر بتوزيع بعض أملاكه على الفقراء والمساكين. ولكن سرعان ما أطلق سزاحه، وبنى لنفسه صومعة قرب باب القصر، وأمضى فيها باقى حياته تائبا متعبدا حتى وفاته. ولم يكن قد بلغ الأربعين من عمره.

بدأ الأمير نوح عهده باستئصال شأفة التشيع من البلاد، فألقى القبض عليهم، ووزع أملاكهم على المساكين، وأعقب ذلك مذبحة عامة شملتهم، كما تصدى لمواجهة العديد من الثورات الداخلية سواء ثورات أمراء البيت السامانى أو ثورات حكام الأقاليم التابعة لآل سامان. أما فى الخارج فقد اصطدم بأطماع الزياريين والبويهيين، واستمر فى محاربتهم حتى وفاته سنة ٣٤٣/ ٩٥٤م.

ارتقى عبد الملك بن نوح العرش، وفى عهده ضعفت السلطة المركزية، وسيطر على مقاليد الأمور قائد الحرس البتكين، كما ازداد نفوذ العسكريين، وتعددت ثوراتهم، الأمر الذى دفع الأمير عبد الملك لمحاولة التخلص منهم، وإعدام أحد قوادهم، غير أن هذا الإجراء لم يسفر إلا عن مزيد من الاضطرابات عمت البلاد بأكملها حتى أن دار الإمارة لم تسلم فى غمرة هذه الأحداث فتعرضت للنهب والسلب والحريق. ومات فجاة سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م. (١)

وخلفه أخوه أبو صالح منصور، ومن بعده ابنه ابو القاسم نوح وكان غرا صغيرا لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره. فتولت إدارة الدولة أمه بمعاونة الوزير أبو الحسين عبد الله بن احمد العتبى. فجنح حكام الولايات للاستقلال بولاياتهم عن الدول السامانية. فاستقل خلفاء وشمكير بن زيار ببلاد جرجان وطبرستان، كما توسعت الدولة البويهية على حساب الدولة السامانية.

بدأت الدولة الغزنوية فى الظهور على ساحة الأحداث السياسية فالتهمت ما بقى من أملاك السامانيين. وبذلك انتهت الدولة السامانية التى ظلت تحكم شرق الدولة الإسلامية قرابة قرن وربع قرن من الزمان.

---

(١) بارتولد : المرجع السابق، ص ٣٧٥.

نظم الحكم والإدارة فى الدولة السامانية :

كان على رأس هذا النظام الأمير الساماني، وكانت له سلطة مطلقة، ويقع على عاتقه إدارة شؤون الدولة، وتنظيم أمورها، والإشراف الكامل على جميع مرافقها، وتعين عمال الولايات، وتصريف شؤون الرعية. وكان الأمراء السامانيون يتمتعون داخل دولتهم بالاستقلال الكامل والسيادة المطلقة إلا أنهم كانوا يحرصون على إعلان الولاء والطاعة للخلافة العباسية في بغداد، فأطلقوا على أنفسهم "موالى أمير المؤمنين" و"عمال الدولة". وكانوا يسعون إليهم بالهدايا، وتتوالى مراسلتهم لإخبارهم بالمستجدات من الأحداث، ففي سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤١م أرسل الأمير نصر السامانى للخليفة العباسى هدايا سنية ومعها رأس أحد ثوار الديلم". وبذلك أقرتهم الخلافة العباسية على ما بأيديهم من بلاد وأقاليم، فاكتسب حكمهم الصفة الشرعية أمام رعاياهم. مما زاد من قوتهم ونفوذهم، وتفرغوا لتوسيع أملاكهم وتنظيم جبهتهم الداخلية.

أفاض المؤرخ بارتولد فى عرض النظام الإدارى للدولة فذكر أن الهيئة الحكومية فى الدولة السامانية كانت تنقسم إلى قسمين أساسيين هما : البلاط، والدواوين.

أولاً : البلاط السامانى . وكان يتكون من :

الحرس : ويتكون من المماليك الغلمان صغار السن، وكانوا يشترون لهذا الغرض، وغالبا ما ينتمون إلى العنصر التركى، وكانوا يمرون بتدريبات عسكرية صارمة ، قد تستغرق عشر سنوات حتى يكتسب الخبرات الكافية التى تؤهل ذوى المواهب منهم للوصول إلى أعلى المناصب العسكرية مثل قائد كتيبة من الفرسان ، ثم الحاجب، ثم حاجب الحجاب الذى كان يرأس جميع رجال البلاط، وكان يعد من أعمدة الدولة.

صاحب الحرس أو أمير الحرس. وهو المنصب الثانى فى الأهمية بالبلاط السامانى وقد شغل هذا المنصب الأمير إسماعيل السامانى فى بلاط أخيه نصر، وكانت مهمته تأمين الأمير وأهل بيته، وتنفيذ أحكام الأمراء، والضرب على إيدى ذوى الجنايات، ويحكى الوزير نظام الملك عن اثنين من أمراء الحرس وظيفتهما من شروق الشمس إلى انقضاء النهار ضرب الأعناق، وقطع الأيدي والأقدام، والضرب بالعصى والزج فى السجن". وكان أمير الحرس يلازمه خمسون من حملة العصى ليكونوا دائما تحت تصرفه بالبلاط؛ عشرون منهم يحملون عصا من الذهب، وعشرون أخرون يحملون عصا من الفضة، وعشرة يحملون عصيا من خشب.

وكيل البلاط : كانت مهمته الإشراف على الشؤون الداخلية للبلاط . وكان صاحب هذا المنصب يعد من الشخصيات الرئيسية فى البلاط السامانى، فكان يذكر اسمه جنباً إلى جنب مع الأمير والوزير.

وفضلا عن هذه المناصب الرئيسية. كان هناك عدداً من الوظائف الأقل أهمية مثل الخدم، والبوابون، والندماء وغيرهم.

أما عن الدواوين :

فقد تطورت الدواوين فى الدولة السامانية تطوراً كبيراً . وكان ببخارى عدة دواوين منها :

- ديوان الوزير ومهمته مساعدة الوزير فى أداء أعماله.
- ديوان صاحب الخزينة أو المستوفى ويقوم مقام ديوان الخراج فى بغداد ومهمته جمع وجباية الخراج والإشراف على أوجه الأنفاق المختلفة.
- ديوان الرسائل : وكان يعمل به عدد من الكتاب والأدباء يتميزون بحسن الخط والبلاغة وأدب الكتابة .
- ديوان البريد : ومهمة صاحبه نقل أوامر الأمراء السامانيين إلى الولاة والرعية فى الأقاليم. وإبلاغ الامراء بتصرفات الولاة وأخبار الرعية. فكانوا رقباء عليهم.

- ديوان الشرطة : ويتولاه صاحب الشرطة ومهمته نشر الأمن والأمان والضرب على أيدى الجناة وحفظ النظام.
- ديوان المحتسب : مهمته حفظ النظام فى الشوارع والأسواق، ومنع الغش، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يشترط فيمن يتولاه الشدة والحزم والغلظة على أهل الريب.
- ديوان الأوقاف : ومهمته الإشراف على الأوقاف. وصرف ريعها فى الأوجه المخصصة لها.
- ديوان القاضي : القاضى مهمته الفصل بين الناس فى خلافاتهم، ورد الحقوق لأصحابها. وكان ديوان القاضى يضم سجلات الأحكام التى يصدرها القضاة.
- ديوان الأملاك الخاصة : مهمتها الأشراف على أملاك الأمير السامانى.
- ديوان المشرفين : مهمته تسجيل أملاك البلاط، والإشراف على الأموال المرصودة لبلاط الأمير

كان الوزير يرأس هذه الدواوين كلها، ويشرف على أعمالها فضلا عن مهمته الأساسية فى قيادة الجيوش، والدفاع عن الدولة، وكان الوزير يحمل لقب الحاكم أو كتخدا أى "رب الدار" وشارته الدواة، وقد حظيت الدولة السامانية بعدد من الوزراء الأكفاء منهم الوزير أبو على محمد البلعمى وزير إسماعيل بن أحمد، والوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وزير نصر بن أحمد السامانى. (١)

وحرصا من الأمراء السامانيين على نشر العمل ورفع الظلم عن الرعية كان يعقد مجلس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء من كل أسبوع ويحضره صاحب الجيش أو الوزير والعلماء والأشراف للنظر فى مظالم الرعية وانصافهم. (٢)

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر :

بارتولد. تاريخ تركستان، ص ٣٥٤ وما بعدها.

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٣٢٨.

الحياة الاقتصادية فى الدولة السامانية

أدرك الأمراء السامانيون أن تعزيز كيان دولتهم لا يتحقق إلا بتنمية موارد الثروة بها. فأسسوا ديوانا للرى فى مدينة مرو أطلقوا عليها ديوان الماء، وكان يشرف عليه موظف كبير يساعده أكثر من عشرة آلاف عامل، وتودع به سجلات وتقارير خراج الأرض حسب نوع ريها، كما وجهوا عنايتهم نحو حفر الترع، وإقامة القنوات والجسور، وتطهير مجارى الماء، فازدهرت الزراعة وكثرت الحاصلات الزراعية. وكان من أهمها الحنطة والأرز فضلا عن الفواكه المختلفة مثل البطيخ الذى يرسل منه إلى الخلفاء العباسيين فى أنية ملفوفة فى الثلج وكان ثمن الواحدة منها يصل إلى سبعمائة درهم، فضلا عن السفرجل والكمثرى، والتفاح والاعناب والتمور التى بلغ من كثرتها بإقليم كرمان أن الأهالى كانوا لا يرفعون ما وقع من النخيل على الارض. وكان الحمالون يحملون التمر إلى خراسان مقابل أخذ نصفه. أما قصب السكر فقد كثرت زراعته فى بلاد الأفغان وكابل وأصفهان. يقول الاصطخرى "أما فواكههم فإنك إذا تبطنت السعد وأشروسنة وفرغانه والشاش رايت من كثرتها ما يزيد على سائر الأفاق، حتى ليرعاها لكثرتها دوابهم"(١).

أما عن الصناعة :

فقد ازدهرت الصناعات فى الدول السامانية ازدهاراً كبيراً، وقد ساعد على ذلك توفر المواد الخام مثل مناجم الحديد والفحم فى كرمان وكابل وفرغانه، والقطن فى فارس، والغابات فى مازندان وطبرستان، يقول الاصطخرى "وبها معدن الفضة والذهب والزنبق الذى لا يقارنه فى الغزارة والكثرة معدن فى سائر بلاد الإسلام". هذا فضلا عن توفر الأيدى العاملة، ووفرة الأسواق لتصريف المنتجات(٢).

---

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٦١، ١٦٢.

(٢) الاصطخرى : المصدر السابق والصفحات.

كان من أشهر الصناعات : صناعة المنسوجات القطنية والكتانية والاكسية الصوفية والحريرية في مرو ونيسابور وطبرستان، وكان الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني يقوم بمنح قواده وخواصه أثوابا كتانية فائقة الجودة كهدايا قيمة. هذا فضلا عن الصناعات الحديدية كالسيوف والدروع والأواني المنزلية، كما اشتهرت أصفهان بالبسط فائقة الجودة أما سمرقند فقد اشتهرت بصناعة الورق المعروف بالكاغد. الذي انتشر استعماله في جميع أرجاء العالم الإسلامي حتى قيل أن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر. وقد أفاض الرحالة والجغرافيون في وصف المصنوعات في بلاد فارس وما وراء النهر من حيث تنوعها، ووفرتها وجودتها[1].

أما عن التجارة الداخلية فكان مقرها الأسواق التي انتشرت في جميع المدن والبقاع ومعظمها مظلل بسقوف قصار. وكان كل طائفة من التجار يقيمون في ناحية مخصصة لهم في السوق. وقد زودت هذه الأسواق بشبكة من الطرق سهلت على التجار نقل بضائعهم.

كما ازدهرت التجارة الخارجية حيث ارتبط السامانيون بعلاقات تجارية وطيدة مع الروس والصين ومصر والعراق فكانوا يصدرون إنتاج بلادهم من كواغد ومنسوجات وغيرها، ويستوردون الخز وجلود الثعالب والشمع والعسل. وقد حرص السامانيون على نشر الأمن والأمان في بلادهم مما شجع التجار على القدوم إليهم والتعامل معهم، لذلك فقد وصف المقدسي بلادهم بقوله بأنه "خزانة المشرقين، ومتجر الخافقين، بضائعه تحمل إلى الأفاق. ولبزه نور وإشراق يتجمل به أهل مصر والعراق، ويحيى إليه الثمرات، ويُرحل إليه في العلم والتجارات، فرصة فارس والسند وكرمان، ومطرح خوارزم والري وجرجان"[2].

انعكست الأوضاع السياسية وما تميزت به من قوة واستقرار، والأوضاع

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣١٥.

الاقتصادية ما غلب عليها من خصب وسعة، على حياة الناس الاجتماعية وأخلاقهم. فتميزوا بالسماحة وحب الخير وكرم الضيافة. يقول الاصطخرى " وأما سماحتهم فإن الناس فى أكثر ما وراء النهر كأنهم فى دار واحدة. ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل دار نفسه، ولا يجد المضيف من طارق فى نفسه كراهة، بل يستفرغ مجهوده فى إقامة أوده،من غير معرفة تقدمت، ولا توقع مكافأة، بل اعتقاداً للسمحة فى أموالهم، وهمة كل امرئ منهم على قدره فيما ملكت يده، من القيام على نفسه ومن يطرقه، وبحسبك أنك لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف فتراه عامه دهره متأنقا فى إعداد ما يصلح لمن طرقه، فإذا حل بينهم طارق تنافسوا فيه وتنازعوه".

ويواصل الاصطخرى حديثه واصفاً كرم أخلاقهم فيقول : ولقد شهدتُ منزلا بالسغد ضربت الأوتاد على باب داره، فبلغنى أن بابها لم يرد منذ مائة سنة وأكثر لا يمنع من نزولها طارق، وربما نزل بالليل بغتة من غير استعداد المائة والمائتين والأكثر بدوابهم وحشمهم، فيجدون من علف دوابهم وطعامهم ودثارهم ما يعمهم من غير أن يتكلف صاحب المنزل أمراً لذلك، لدوام ذلك منهم، وصاحب المنزل من البشاشة والإقبال والمساواة لأضيافه بحيث يعلم كل من شاهده سروره بذلك، وسماحته، ولم أر مثل هذا ولم أسمع به فى شئ من بلدان الإسلام".(١)

النهضة الثقافية فى الدولة السامانية

اهتم الأمراء السامانيون بالعلوم والآداب اهتماماً كبيراً، وقد مدح المقدسى سيرتهم فقال :

"إنهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالاً للعلم وأهله، وقد كان من رسومهم أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم، ولهم مجالس عشيات

---

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٦٢.

جمع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان فيبدأ هو فيسأل مسألة ثم يتكلمون عليها وقد كان من رسومهم أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم"[١]. وغدت بخارى حاضرة البلاد في عهدهم مركزاً من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي، وقد وصفها الثعالبي بقوله "كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة للمجد، وكعبة الملك، ومجتمع أفراد الزمان، ومطلع أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر"[٢].

حرصت الدولة السامانية على استقدام العلماء والأدباء من مشارق الأرض ومغاربها وشجعتهم على التأليف والتصنيف، وأغدقت عليهم الأموال الطائلة، والهبات السنية، كما أقامت المدارس المتعددة، والمكتبات الزاخرة بالمؤلفات في شتى فروع العلم والمعرفة؛ وسمحت لطلاب العلم بالتردد عليها والاستفادة منها. وكان من أشهر هذه المكتبات والمدارس. المدرسة ودار الكتب اللتين أنشأهما الأمير إسماعيل الساماني وأوقف عليهما الأوقاف العظيمة لضمان استمرار الانتفاع بهما. فضلا عن مكتبة الأمير نوح الثاني بن منصور الساماني التي وصفت بأنها "عديمة المثل، فيها من كل الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها. ولا سمع باسمه، فضلاً عن معرفته[٣].

تنوعت العلوم والمعارف التي راجت وازدهرت في الدولة السامانية، وكان في مقدمتها علوم الدين من تفسير وحديث وقراءات، وغيرها. وأصبحت بخارى تعرف باسم "بخارى الشريفة التقية" لازدهار هذه العلوم بها، وكثرة علماء الدين وطلاب العلم فيها. وكان في مقدمتهم العالم الشهير أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين، صاحب كتاب الجامع الصحيح، وقد حوى هذا الكتاب على

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر (القاهرة ١٣٥٣هـ) ج٢، ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ٢٢٢.

ستمائة ألف حديث، أنفق الأمام البخارى ستة عشر عاماً فى جمعها وتصنيفها، وقيل إن أكثر من سبعين ألف من طلبة العلم درسوا هذا الكتاب على يد مؤلفه. وتوفى الأمام البخارى في نواحى سمرقند سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م(١).

وفضلا عن العلوم الدينية ازدهرت العلوم العقلية، وذخر البلاط السامانى بعدد من العلماء الذين أثروا الحياة العقلية والعلمية فى عهدهم. وكان منهم العالم أبو بكر زكريا الرازى الذى يعد من أعظم الأطباء المسلمين قاطبة. ولد بإقليم الرى بفارس سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م. وكان فى شبابه يضرب بالعود فلما التحى قال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستحسن فترك الغناء، وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة والإلهيات والطبيعية والكيمياء والفلك فصار أمام وقته فى علم الطب. وقد بلغت مؤلفاته ما يزيد عن مائتى مؤلف. أهمها فى مجال الطب كتابه الشهير "الحاوى" الذى يعد أقدم موسوعة طبية شاملة جمع فيها الرازى كل المعارف الطبية العربية واليونانية والهندية الموجودة فى عصره. وأضاف إليها خبراته واكتشافاته. لذلك فقد وصفه ابن خلكان بقوله : "كان الرازى أمام وقته فى علم الطب، والمشار إليه فى ذلك العصر، وكان متقنا لهذه الصناعة، حاذقا بها، عارفا بأوضاعها وقوانينها، تشد إليه الرحال لأخذها عنه، وصنف فيها الكتب النافعة".

وقد بلغت شهرة الرازى إلى البلاط السامانى فاستدعوه لعلاج أحد الامراء. وقد كافأه الأمير بالخلع والهدايا، وأجرى عليه رزقا سنويا قدره ألف دينار ذهبا وحمل مائتى حمار من القمح. كما اتصل بالأمير منصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح السامانى. فألف له "كتاب الطب المنصورى" تناول فيه تشريح جسم الإنسان، ووظائف الأعضاء. وتوفى سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م. (٢)

---

(١) عادل رستم : التاريخ السياسى والحضارى للدولة السامانية، ص ٨٢-٨٤.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر، ج٢، ص ٧٢.

محمد غريب جودة : عباقرة علماء الحضارة العربية الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٩٠ وما بعدها.

كما تزين البلاط الساماني بالعالم الشهير أبو على الحسين بن عبد الله الشهير بابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ) الذى اشتهر بلقب الشيخ الرئيس نظراً لنبوغه وبروزه على علماء عصره، وأطلق عليه أيضا أمير الأطباء "وأطلق عليه أخرون لقب "المعلم الثالث" على اعتبار أن المعلم الأول هو الفيلسوف اليونانى أرسطو، والمعلم الثانى هو الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابى.

ولد ابن سينا فى قرية "أفشنا" قرب بخارى بفارس، وأتم حفظ القرآن فى العاشرة من عمره، ودرس العلوم الشرعية، والفقة واتقن علوم الرياضيات والإلهيات، ثم اتجه لدراسة الطب، ونبغ فيه وذاع صيته. فاستقدمه الأمير نوح الثانى بن منصور السامانى لعلاجه من مرض أصابه. فلما نجح ابن سينا فى علاجه. وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عاما منحه الأمير جائزة سنية، وسمح له بالتردد على مكتبته المزودة بأمهات الكتب. فعكف ابن سينا على مطالعتها حتى أحاط علما بكل علوم عصره. وبعد العشرين من عمره انقطع للاشتغال بالتأليف والتصنيف، وحين بلغ الثانية والعشرين أضحى أبرز أطباء زمانه، إذ كان يتميز بعبقرية فذة، وقوة ذاكرة مكنته من استيعاب الكثير من المعارف، وكان لا يكف عن القراءة والإطلاع وإملاء مصنفاته على الكتبة الذين كان يعتريهم التعب والإرهاق من كثرة الكتابة فيبدلون بعضهم بعضا، وهو راسخ فى مجلسه صاف الذهن، لا تطرف له عين، ولا يتسرب إلى عقله الخلل. وكان يعالج مرضاه تأدباً وليس تكسباً ومن أشهر مؤلفاته "القانون فى الطب" و"الشفاء" فى الحكمة، وهو يتعلق بالعلوم الرياضية والطبيعة[1].

أما بالنسبة للآداب. فقد حفل عهد الدولة السامانية بحركة أدبية عظيمة، كان من أبرز ملامحها هو إحياء اللغة الفارسية من جديد، واعتمادها لغة الفكر والثقافة

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج٢، ص ١٦١.

محمد غريب جودة : المرجع السابق، ١٧٢، ١٧٥.

والآداب شعراً ونثراً. جنباً إلى جنب مع اللغة العربية التى كانت تعد اللغة الرسمية المستخدمة فى المصالح الحكومية والدواوين.

توسع الأمراء السامانيون فى استخدام اللغة الفارسية تعبيراً عن قوميتهم، واستقلالهم حتى أن بعض أهل الفتيا فى بلاطهم أفتى بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية، وادعى علماء الدين عندهم أن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية. كما جذب البلاط السامانى عدداً من الشعراء والأدباء ذوى اللسانين الذين أجادوا النظم باللغة الفارسية واللغة العربية، وكان من أشهرهم أبو عبد الله جعفر بن محمد الرودكى الملقب بسلطان الشعراء ولد بقرية قرب سمرقند. وقيل أنه ولد أعمى، وكان حسن الصوت، جيد الغناء نظم قصيدة باللغة الفارسية وغناها بحضرة الأمير نصر الثانى السامانى فقربه وأدناه إليه وأغدق عليه، ونسب إليه أن نظم كليلة ودمنة فكأنه ردها إلى أصلها الفارسي. وكان يتميز بغزارة الإنتاج حتى ملأت أشعاره نحو مائة مجلد، وبلغت أشعاره مليونا وثلاثمائة بيت. وقد جمع من شعره مالاً طائلاً، وثروة كبيرة، وكان فى أيام مجده يملك مائتين من الرقيق، وكانت أمتعته تحمل على مائة من الإبل، ولكنه فى أواخر أيامه غضب عليه الأمراء السامانيون، وأصابته الفاقه لأنه أذاع آراء تتعارض مع تعاليم الإسلام. فكان ذلك سبب نكبته، توفى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م[١].

أيضا من شعراء العصر السامانى أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقى الطوسى. وترجع شهرته إلى أنه أول من نظم الملحمة الفارسية، وأتم نظم ألف بيت منها تعرض فيها لظهور زرادشت وتعاليم دينه، وسيرة أكاسرة الفرس القدامى، وقد نال تقدير معاصريه حتى أصبح من أبرز شعراء الأمير نوح الثانى بن منصور. وقد ثارت حوله نفس التهم التى ثارت حول الرودكى فاتهم بالمجوسية عقب تصريحه بإعجابه بالدين الزرادشتى الذى يبيح الزنى والخمر.

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، ص ١٠٠ وما بعدها.

ومن الشعراء أيضاً الفردوسى نشأ بطوس بخراسان، وجمع الأساطير الإيرانية القديمة فى قصيدة منظومة، وهو على رأس شعراء إيران الذين حفظت أشعارهم. ومن أشهر مؤلفاته، الشاهنامة التى تعد كنزاً قومياً للشعب الإيرانى إذ تزخر بقصص البطولة والفداء، وتحتل مكانة مرموقة في الآداب العالمية(١).

لم يقتصر اهتمام الأمراء السامانيين بالشعر الفارسى فحسب، بل شهد البلاط السامانى ميلاد النثر الفارسى أيضا، وقد شارك الوزراء السامانيون فى هذه النهضة بإنتاجهم الأدبى المتميز، وكان من أهمهم الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وزير نصر بن أحمد الساماني، والوزير أبو على محمد البلعمى وزير منصور الأول بن نوح الساماني. وقد قام بترجمة تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى إلى اللغة الفارسية(٢) سنة ٣٥٣هـ وقدمه للأمير منصور. وتعد هذه الترجمة أقدم نصوص النثر الفارسى، كما ترجم كتاب الأبنية عن حقائق الأدوية لموفق الدين أبى منصور الهروى الذى ألفه سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م. وألف كتاباً للأمراء السامانيين فى العقائد باللغة العربية، ثم ترجمة للفارسية لوقاية الشعب من الشيعة والرافضة. وألف لهم أيضا تفسيراً للقرآن بالفارسية. (٣)

---

(١) حسن أحمد محمود : المرجع السابق : ص ١٠٢.
(٢) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ٢٢٣.
(٣) حسن أحمد محمود : مرجع سابق، ص ١٠٣/ ١٠٤.

الدولة البويهية

(٣٢٠-٤٤٧هـ/٩٣٢-١٠٥٥م)

بلغ النفوذ الفارسي ذروة مده واتساعه واستقلاله بظهور البويهيين الذين انطلقوا من موطنهم الأصلي منطقة طبرستان والري ليجتاحوا العالم الإسلامي، ويؤسسوا إمارات بويهية شملت شرق الدولة الإسلامية بأسرها، وتجاوز نفوذهم إلى العراق وبغداد فسيطروا على الخلافة العباسية، وحكموا العالم الإسلامي باسمها[١].

والبويهيون ينتمون إلى عنصر الديلم، وهو أحد العناصر الفارسية، وكانوا ثلاثة أخوه علي والحسن وأحمد. وكان أبوهم بويه وكنيته أبو شجاع رجلا متوسط الحال. فلما سطع نجمهم، وذاع صيتهم، وعظمت مملكتهم اشتهر نسبهم إلى بهرام جور بن أردشير بن بابك، نشأ أولاد بويه نشأة عسكرية، حتى أصبحوا من كبار القادة. وكانوا يعملون في خدمة من يدفع لهم. فدخلوا في خدمة "ماكان ين كاكي" حاكم طبرستان، وكانوا مقدمين عنده، فلما هُزم على يد القائد التركي مرداويج بن زيار الذي استولى على ما بيده من ممتلكات، وتأكد بنو بويه من عجز قائدهم عن دفع رواتبهم وأعطياتهم، اعتذروا عن الاستمرار في خدمته، وقالوا له "نحن معنا جماعة، وأنت مضيق، والأصلح أن نفارقك لتخف المؤونة عنك، فإذا صلح أمرك عدنا إليك". فأذن لهم[٢].

لحق بنو بويه بمرداويج بن زيار الذي كان قد تمكن من إقامة إمارة واسعة الأرجاء تشمل قزوين والري وهمذان. والدينور، وبروجرد، وقم ، وكاشان وأصفهان وطبرستان وكان قد عمل لنفسه سريراً من ذهب يجلس عليه، ويقف عسكره صفوفا بين يديه ولا يخاطبه أحد إلا عن طريق حجاب رتبهم لهذه المهمة

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، ص ٧٥.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ٧٨.

إحياءً للتقاليد الفارسية الساسانية[1]. وقد رحب مرداويج بانضمام بني بويه إلى خدمته، وأحسن إليهم ليتقوى بهم في توسعاته والحفاظ على مملكته، فقلد علي بن بويه إمارة الكرج. وولى القواد الذين كانوا معه النواحي والأعمال، وكتب لهم العهود، وأرسلهم إلى أخيه وشمكير بالري ليسلمهم أعمالهم. ولكن مرداويج سرعان ما ساورته الشكوك حول أطماع بني بويه وطموحاتهم. فأرسل لأخيه يطالبه بتمزيق العهود، وإلقاء القبض عليهم . فقبض على الحسن أما علي فقد تمكن من الفرار.

توجه علي بن بويه إلى إمارة الكرج فتحصن بها، وولي شئونها. فأحسن إلى الرعيه ورفع الظلم عنهم، واستمال إليه الرجال والقواد، ووزع عليهم الأموال فدانوا له بالولاء والطاعة. كما اهتم بتنظيم جيشه، وزيادة عدده وقوته، مما ساعد على توطيد نفوذه في هذه الإمارة.

اتخذ علي بن بويه من امارة الكرج منطلقا له. فخرج منها قاصدا أصفهان وكان واليها ابن ياقوت فاقتتلا واستولى على البويهي على المدينة، وكان جيشه قوامه تسعمائة رجل فقط، أما جند ياقوت فكان يتجاوز العشرة آلاف رجل. فلما انتصر البويهي بجيشه القليل على هذا العدد الغفير عظم في عيون الناس، وزادت هيبته، وواصل توسعاته فاستولى في عامي ٣٢٠، ٣٢١هـ على كل من أرجان وشيراز، ورامهرمز، والنوبندخان، واصطخر وكرمان.[2]

زادت هذه الانتصارات من تدهور العلاقات بين علي بن بويه ومرداويج الذي أظهر عجزا واضحا في القضاء على منافسه. فأخذ يهدده تارة، ويلاطفه باللين تارة أخرى، ويذكره بفضله عليه، ويدعوه لإقامة الخطبة باسمه في البلاد التي تحت يديه، ولم تجد هذه المحاولات نفعا مع علي البويهي الذي أعرض عنه، ملتفتا إلى تحقيق هدفه في إقامة دولة بويهية واسعة الأرجاء، ولحسن حظه سرعان ما بلغه

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق : ج٢، ص٧٣.

(٢) ابو الفدا : المصدر السابق، ج٢، ص ٧٨، ٧٩.

خبر وفاة مرداويج فتخلص بذلك من أعظم منافس له، وواصل فتوحاته وتوسعاته فاستولى على بلاد فارس كلها واستخرج أموالها. وأرسل أخاه الحسن الذى أطلق سراحه عقب وفاة مرداويج إلى بلاد الجبل فاستولى على أصبهان، والرى، وهمذان، وقم، وقاشان، وقزوين، وكازرون وغيرها[١].

أراد على بن بويه أن يكسب صفة شرعية فى حكم امارته. فراسل الخليفة الراضى بالله يعلن ولاءه وطاعته للخلافة، ويطلب منه أن يعترف بحكمه ويقره على ما بيده من امارات مقابل قدر من المال، فوافق الخليفة، وأرسل إليه خلعة السلطنة وعهد التقليد مع أحد رسله، وأوصاه ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانمائة مليون درهم إلى دار الخلافة. ويتعهد بأن يؤدى للخزانة العباسية مثلها كل عام. ولكن على بن بويه احتال على الرسول فأخذ منه خطاب التقليد فقرأه على رؤوس الاشهاد والخلعة فلبسها، وأخذا يماطل الرسول فى دفع المال أو التعهد بدفعه حتى مات الرسول عنده بشيراز فقويت نفسه وازدادت هيبته[٢].

وبينما كان على بن بويه يواصل انتصاراته وفتوحاته كان يتابع أخبار الخلافة العباسية وضعفها، وتدهور أحوالها، وسيطرة القادة الأتراك على مقاليد الأمور فيها. فطمع فى الاستيلاء عليها. وعهد بهذه المهمة إلى أخيه الثالث أحمد. فخرج قاصدا الأهواز فاستولى عليها، عندئذ أرسل إليه عددٌ من القادة والاهالى ببغداد يستنجدون به من سوء الأوضاع فى الحاضرة. فقصد بغداد سنة ٣٣٤هـ فاستقبله الخليفة المستكفى بالله، وأظهر له السرور بمقدمه وبايعه أحمد بن بويه بالخلافة، كما بايعه الخليفة بالسلطنة، وخلع عليهم الألقاب. فلقب على صاحب إمارة فارس بعماد الدولة، والحسن صاحب امارة الرى والجبل بركن الدولة، واحمد صاحب العراق بمعز الدولة، وأمر الخليفة بأن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود، ولما كانت

---

(١) حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص ٧٦، ٧٧.

(٢) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ٥١.

الزعامة الفعلية لأكبر أبناء بويه على عماد الدولة، فقد كان معز الدولة يخطب على منابر بغداد باسم الخليفة وباسم أخيه عماد الدولة[1].

حكم معز الدولة بغداد نحوا من اثنين وعشرين سنة من ٣٣٤هـ- ٣٥٦هـ. وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة، وركن الدولة قائمة على أسس قوية من الود والتعاون، حتى أنه اتخذ السعاه لاعلام أخويه بالأحوال، ونقل الأخبار إليهما فى أسرع وقت ، وكان من أشهرهم فضل ومرعوش اللذين فاقا جميع السعاه، وكان كل واحد منهما يسير ما يزيد على أربعين فرسخا. وتعصبت لهما الناس فكان أحدهم ساعى السنة والآخر ساعى الشيعة[2].

توفى معز الدولة سنة ٣٥٦هـ فخلفه ابنه عز الدولة بختيار الذى أساء السيرة فى الرعية، وانشغل باللهو والصيد، واستغل قادة الديلم ذلك فبغوا على الاهالى، واغتصبوا أموالهم، وأراضيهم، وثارت الفتن والقلاقل، وانعدام الأمن، وثار العيارون ينهبون ويسلبون وانتشر الشر، وتعطل الجهاد[3]. فاستجاشت الروم على ديار الإسلام. فقتلت وأسرت وغنمت[4] فلم يجد عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه والذى آلت إليه زعامة البيت البويهى عقب وفاة عمه عماد الدولة بدا من التدخل فى العراق سنة ٣٦٦هـ.

كان عصر عضد الدولة البويهى يمثل ذروة السيادة والسيطرة البويهية، فباستيلائه سنة ٣٦٨هـ على الموصل، وديار ربيعة، وميافارقين، وأمد، وديار بكر، وديار مضر، آلت إليه مقاليد السياسة فى شرق العالم الإسلامى كله[5]. وقد

---

(١) جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٧، ص ٥١.

(٤) المصدر السابق: ج٧، ص ٤٥.

ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٥، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٥) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٧٨، ٧٩.

حرص على الحفاظ على هذا الملك الواسع لبني بويه. وساعده على ذلك ما اتصف به من عقل وفضل، حسن سياسة، وعظم هيبة[١]، فوضع نظاما إداريا دقيقا يمكنه من الإشراف الكامل على الولايات، وكان قوامه حسن اختيار الولاة والعمال، ونشر الأمن والأمان، وتطهير السبل من اللصوص وقطاع الطرق، وتنمية مرافق البلاد بحفر الترع، وإقامة القنوات والجسور، وعمارة البلاد، وتشجيع التجارات وبناء المساجد، وتوطين البدو فى فارس وكرمان ليزرعوا الأرض ويعمروها، وعين عيونا له يرصدون أخبار الناس وينقلونها إليه باسرع وقت، وتوسع فى نظام الجاسوسية فكانت أخبار الدنيا عنده، وكان الناس يحترزون في كلامهم، وأفعالهم حتى مع نسائهم وغلمانهم خوفا من العيون والرقباء[٢].

وكان عضد الدولة محباً للعلم والعلماء. فاستقدم أهل الأدب والعلم من شتى الأصقاع، وأجرى عليهم الجرايات العظيمة والهبات السنية، فصنفوا له الكتب منها "الايضاح" فى النحو، "والحجة" فى القرآآت، الملكى فى الطب، والتاجى فى تاريخ الديلم، وغير ذلك[٣]، وأنشأ بقصره مكتبة ضمت ذخائر الكتب ونفائس المخطوطات. وقد فتحت أبوابها لطلاب العلم. وقد زارها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى وأطلع على بعض نفائسها[٤]. وهكذا كان عصره أزهى عصور الدولة البويهية. وقد خلد ابن الاثير أعماله واصلاحاته فيذكر فى حوادث سنة ٣٩٦هـ . "فى هذه السنة شرع عضد الدولة فى عمارة بغداد وكانت قد خربت بتوالى الفتن فيها، وعمر مساجدها، وأدر الأموال على الائمة، والمؤذنين، والعلماء، والقراء، والغرباء، والضعفاء، والذين يأوون إلى المساجد، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدد مادثر من الأنهار، وأعاد حفرها وتسويتها، وأطلق مكوس

---

(١) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٢، ص ١٢٢.

(٢) حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٠.

(٣) أبو الفدا ، المصدر السابق، ج٢، ص١٢٣.

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

الحجاج، وأصلح الطريق بين العراق ومكة، شرفها الله تعالى، وأطلق الصلات لأهل البيوتات والشرف، والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة، وفعل ذلك بمشهد على والحسين عليهما السلام، وسكن الناس من الفتن، وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين، والنحاة والشعراء والنسابين، والأطباء، والحساب والمهندسين، وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانياً بعمارة البيع والديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم"[1].

بدأت الدولة البويهية فى الضعف والانقسام، عقب وفاة عضد الدولة فقد خلفه ابنه أبو كاليجار الملقب بصمصام الدولة الذى أساء السيرة فى البلاد والرعية وتعسف فى جباية الضرائب. يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٧٥هـ "فيها جدد صمصام الدولة ببغداد على الثياب الابرسيم والقطن ضريبة مقدارها عشر الثمن، فاجتمع الناس فى جامع المنصور، وعزموا على قطع الصلاة، وكاد البلد أن يفتن فأعفوا من ذلك"[2]. ونازعه أخوه شرف الدولة في الحكم ونجح في هزيمته واعتقاله، وتقلد شرف الدولة السلطنة ولكن لم يطل عهده فسرعان ما وافته المنية بعد سنتين وثمانية أشهر من ولايته.

وعقب وفاة شرف الدولة خلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة وفى عهده تجدد الصراع بينه وبين عمد صمصام الدولة الذى كان قد نجح فى الفرار من سجنه، وانتهى الامر بينهما باقتسام النفوذ والحكم بينهما. ومع مقتل صمصام الدولة سنة ٣٨٨هـ، ووفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ. لم يتوقف الصراع بين امراء البيت البويهى حتى أن بعضهم استعان بالغزنويين ضد أخوانهم، ولعبت طوائف الجند دورا كبيراً فى إذكاء نار الفتنة والانقسام بالانضمام إلى بعض الأمراء ضد بعضهم الآخر، ثم جاءت نهاية الدولة البويهية على يد السلاجقة الأتراك الذين استغلوا هذه

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ج٧، ص ١٠١.

(٢) المصدر السابق: ج٧، ص ١٢٨.

المنازعات فاستولوا على الممالك البويهية فى فارس وإيران والعراق، وقضوا بذلك عليها سنة ٤٤٧هـ. (١)

علاقة البويهيين بالخلافة العباسية :

ساءت علاقة البويهيين بالخلافة العباسية، فلم يرعوا للخلفاء العباسيين احترامهم وهيبتهم فشاركوهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية، فنُقشت اسماءهم وألقابهم على السكة، كما ذُكرت أسماءهم فى الخطبة، وكان ذلك من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره، كما استباحوا لأنفسهم ضرب الطبول والدبادب على أبواب دورهم أسوة بما كان يتميز به الخلفاء من ضرب الطبول على أبواب قصورهم فى أوقات الصلوات الخمس. فلما ولى عضد الدولة البويهى طلب من الخليفة الطائع أن يمنحه حق ضرب الطبول أمام بيته. فوافق الخليفة على ذلك ثلاث مرات وقت صلاة الصبح والمغرب والعشاء، ثم أذن الخليفة القادر لجلال الدولة بأن تضرب الطبول أمام داره خمس مرات يوميا.

فضلا عن ذلك فإن نظرة سريعة على الألقاب التى تلقبوا بها تكفى للدلالة على مدى ماتمتعوا به من نفوذ وسطوة، فقد لقب على بعماد الدولة ، والحسن بركن الدولة، وأحمد معز الدولة، وعضد الدولة لقب بتاج الملة، ولقب صمصام الدولة بعقد الدولة وشمس الملة، كما لُقب شرف الدولة بن عضد الدولة بلقب شاهنشاه أى (ملك الملوك) وقد أثار هذا اللقب استياء الرعية، وقد استفتى العلماء فى هذا اللقب، فأجازه البعض باعتبار النية فى ذلك، إذ أنه يعنى ملك ملوك الأرض، أما الله عز وجل فهو ملك ملوك الأرض والسماء، وليس فيه مماثلة بين الخالق والمخلوق. وما لبثت هذه الألقاب أن تضاءلت قيمتها. وقد أشار إلى ذلك أستاذنا الدكتور جمال الدين سرور نقلا عن هلال الصابى قوله "لا جرم أن الرتب قد نزلت لما تساوت،

---

(١) Hitti : History of the Arabs, p.471-472.

وسقطت لما توازت، ولم يبق لها طلاوة يشار إليها، ولا حلاوة يحافظ عليها، حتى لقد بلغني عن مولانا الخليفة القائم بأمر الله - أطال الله بقاءه- أنه قال : لم تبق رتبة لمستحق"[1].

لم يكتف البويهيون بذلك بل سعوا للقضاء على نفوذ الخلفاء تماما، ولم يتورعوا عن التنكيل بهم والإساءة إليهم، ومصادرة أملاكهم، بل وعزلهم، وقتلهم وإلحاق الأذى بهم. فقد صادر معز الدولة ممتلكات الخليفة المستكفي، ورتب له كل يوم خمسة آلاف درهم يستلمها كاتبه لنفقات الخليفة. ليس هذا فحسب، بل سعى لعزله بصورة مهينة وصفها المؤرخون فقالوا "وصورة خلعه أن معز الدولة وعسكره، والناس حضروا إلى دار الخليفة. فأجلس الخليفة معز الدولة على كرسي، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم وتناولا يد المستكفي بالله فظن أنهما يريدان تقبيلها فجذباه عن سريره، وجعلا عمامته فى عنقه، ونهض معز الدولة فاضطرب الناس، وساق المستكفي ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها، ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ، ولما بويع المطيع سُلم إليه المستكفى فسمله واعماه، وبقى محبوسا إلى أن مات. وازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق لهم في الأمر شئ وتسلم نواب معز الدولة العراق بأسره، لم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه معز الدولة له مما يقوم ببعض حاجته"[2].

لم يقتصر الأمر عند هذا الحد. بل أخذوا يحاربون الخلافة العباسية مذهبيا عن طريق إضعاف المذهب السنى، ونشر مذهبهم الشيعى، فأمر معز الدولة بسب الصحابة، على أبواب المساجد والدور، والاحتفال بيوم عاشوراء بغلق الأسواق، وتعليق المسوح عليها، وتخرج النساء كاشفات وجوههن، ناشرات شعورهن يلطمن وينحن حزنا على الحسين، كما اتخذ من يوم الثامن عشر من ذى الحجة (عبد

(١) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ج٦، ص ٣١٥.

الغدير) يوم فرح فتعلق الزينات، وتفتح الأسواق حتى المساء. وتمادى فى تشيعه إلى حد عزمه على إلغاء الخلافة العباسية السنية، وتحويلها إلى العلويين. ولم يثنه عن قراره سوى خوفه على نفوذه وسلطانه. كل هذا وهو غير عابئ بمشاعر الاستياء لدى جماهير الشعب السنية[1].

وازاء هذه الاهانات الموجهة إلى الخلافة ، أبدى الخلفاء العباسيون زهدا فيها، وعدم التمسك بها، والرغبة من التخلص منها ومن تبعاتها. ففى سنة ٣٦١هـ استجاشت الروم على بلاد الإسلام فغنموا وقتلوا وأسروا ووصل المسلمون إلى بغداد مستصرخين واستغاثوا ببختيار الذى أرسل إلى الخليفة المطيع يطلب مالا. فقال له "إن الغزاة والنفقة عليها، وغيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى، وتجبى إلىّ الأموال، وإما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شئ من ذلك، وإنما يُلزم من البلاد بيده، وليس لى إلا الخطبة فإن شئتم اعتزل فعلت":

فهدده بختيار فاضطر الخليفة إلى بيع ثيابه، وبعض أثاث بيته، ونقض بعض سقوف داره وباع خشبها، وحمل إلى بختيار أربعمائة ألف درهم، فأنفقها فى مصالحه الخاصة وشاع فى الناس أن الخليفة صودر، وبطل حديث الغزاة[2].

وعلى الرغم من سيطرة البويهيين على مقاليد الأمور، واستبدادهم بالسلطة، ومشاركتهم فى مظاهر السيادة والخلافة، فقد ظل الخلفاء العباسيين محتفظين بسلطتهم الدينية باعتبارهم رؤساء المسلمين. يقول جمال الدين سرور نقلا عن البيرونى (ت ٤٤٠هـ) "إن الدولة والملك قد انتقل فى أواخر أيام المتقى وأول أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه، والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى، فالقائم منْ ولد العباس الآن هو رئيس الإسلام لا

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٥، ص ٢٦١، ٢٦٩، ٣٢٠، ٧١٩.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٧، ص ٤٥.

ابن كثير : المصدر السابق، ج١٥، ص ٣٣٣، ص٣٣٤.

ملك"[1].

والواقع أن العصر البويهى يمثل قمة نضوج القومية الإيرانية، ونجاحها فى تحقيق الاستقلال التام، واجتياح شرق العالم الإسلامى، والسيطرة على الخلافة، وفرض نفوذها على العالم الإسلامى باسمها، وما صاحب ذلك من إحياء لبعض المظاهر والتقاليد الفارسية الساسانية القديمة. ولعل لقب شاهنشاه الذى حرصوا على التلقب به دليلا على ذلك.

---

(١) جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ٥٩.

الفصل الثانى

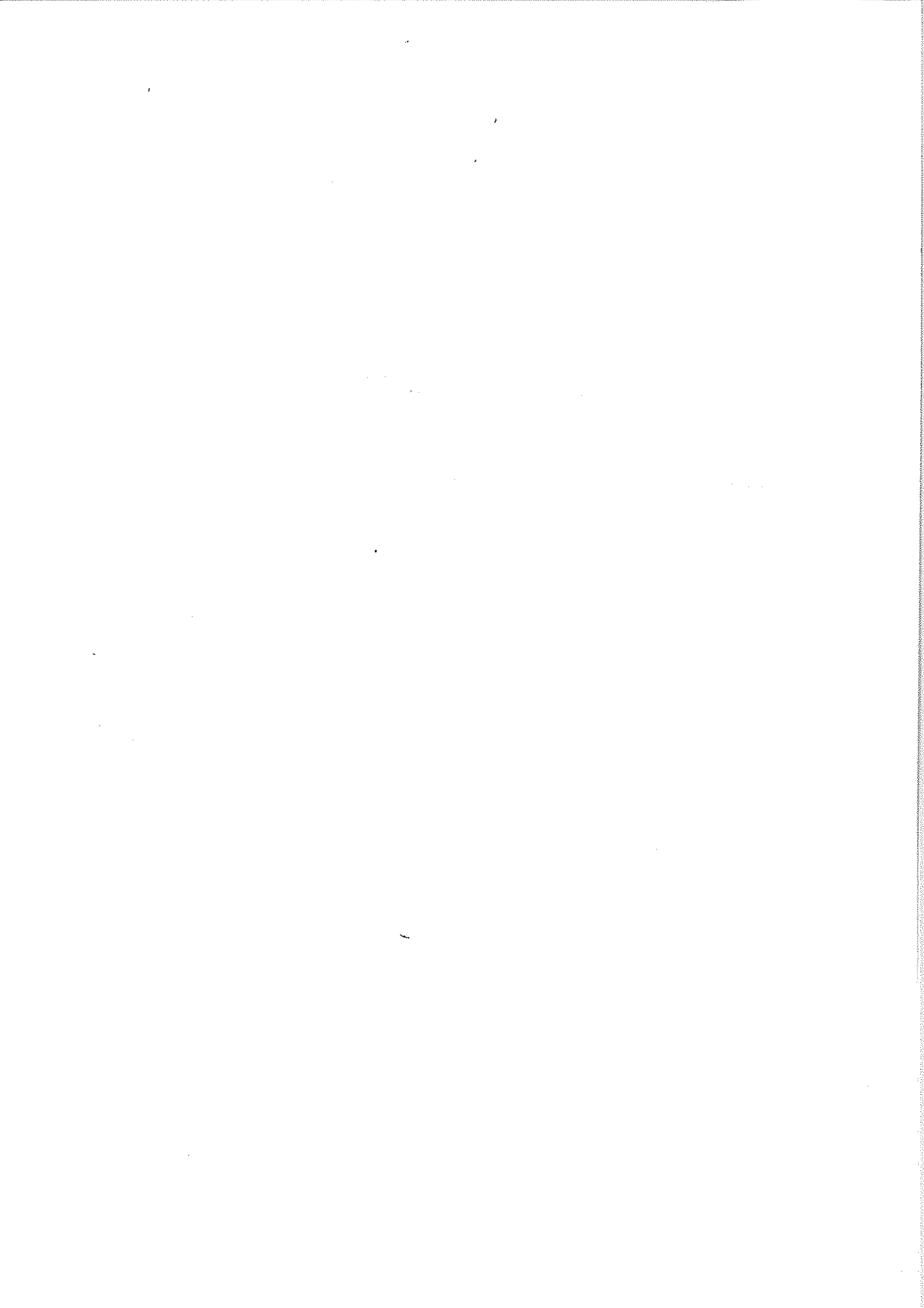
الدولة التركية فى المشرق الإسلامى

أولاً : الدولة الغزنوية.

ثانياً : الدولة السلجوقية.

ثالثاً : الدولة الخوارزمية.

رابعاً : المغول والعالم الإسلامى.



الدولة الغزنوية

(٣٥١-٥٨٢هـ/ ٩٦٢-١١٨٦م)

أولاً : قيام الدولة الغزنوية :

انبثقت الدولة الغزنوية من جوف الدولة السامانية، وقامت على أنقاضها، وذلك لأن الدولة السامانية اعتمدت على العناصر التركية الذين تزايد نفوذهم حتى احتلوا أرقى المناصب الإدارية والعسكرية فى البلاط السامانى، وكان من أشهرهم المولى التركى البتكين الذى دخل فى خدمة الأمير عبد الملك بن نوح السامانى، وأصبح قائداً للحرس، وحاجباً للأمير، وكان يتدخل فى شئون الحكم والإدارة وتعين الوزراء وعزلهم، الأمر الذى أثار ضيق الأمير السامانى. ووجد أن وسيلته الوحيدة للتخلص منه هو تعيينه على خراسان، فوصل إليها سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦١م. بعد أن خلف ورائه فى منصب الحاجب مملوكا تابعا له ، ينقل إليه أخبار البلاط.

برز نفوذ البتكين السياسى مرة أخرى عقب وفاة الأمير عبد الملك بن نوح بشكل فجائى – وما أعقبه من اضطرابات وصراعات، فسارع البتكين وأجلس على العرش ابناً صغيراً للمتوفى اسمه نصر. ولكن سلطانه لم يدم إلا يوماً واحداً. حيث اتحد أمراء البيت السامانى مع قادة الحرس واختاروا أبا صالح منصور بن نوح أميراً للبلاد، ولما وجد البتكين نفسه وحيداً معزولاً من الجميع انسحب إلى غزنة حيث عزل حاكمها المحلى. ووضع اللبنات الأولى فى أساس دولة مستقلة سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م.

وبعد وفاته خلفه ابنه أبو اسحاق إبراهيم الذى لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنة إذ ثار عليه أهلها وطردوه من بلدهم، ولكنه استطاع أن يستردها بمساعدة الجيوش السامانية. ولم يستمر فى حكمه طويلاً إذ سرعان ما وافته المنية، ولأنه لم يكن له وريث شرعى فقد انتقلت السلطة عقب وفاته إلى عدد من المماليك

الأتراك مثل بلكاتكين، وبيرى الذى تنازل عن إمارة غزنة استجابة لرغبة الجيش والرعية – لناصر الدين سبكتكين الذى يعد المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية[1].

وسبكتكين[*] أصله من الأتراك الوثنيين، وقع هو وجماعة من قومه فى أسر الترك المسلمين أو فى يد المطوعة السامانيين، فساقه تجار الرقيق إلى خراسان حيث اشتراه الاسفهسلار البتكين فتوسم فيه الشجاعة والمروءة فقربه إليه، وجعله من خاصته، وصحب سيده إلى غزنة حيث قدم له ولأبنه أبى إسحاق من بعده خدمات جليلة، وبلغ فى خدمتهما درجة الوكالة. وبلغ من نفوذه وحسن سيرته أن أختاره الجيش والرعية أميراً عليهم سنة ٣٦٠هـ.

يقول صاحب المختصر "كان سبكتكين من غلمان أبى اسحاق بن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانيين وكان مقدماً عند مولاه لعقله وشجاعته، فلما مات أبو إسحاق ولم يكن له ولد اتفق العسكر على توليه سبكتكين عليهم لكمال صفات الخير فيه، وحلفوا له وأطاعوه"[2].

اتخذ سبكتكين من غزنه نقطة انطلاق لإقامة مملكة واسعة الأرجاء، مترامية الأطراف نافذة السلطان مستفيداً فى ذلك من الظروف والصراعات بين القوى السياسية آنذاك. فالقوة البويهية تسعى لبسط نفوذها على عاصمة الخلافة ببغداد، واصطدمت بالسامانيين فى بلاد ما وراء النهر، والسامانيون يتعرضون لضغط البويهيين من جهة والقره خانيين من جهة أخرى، وأخيرا القوة السلجوقية الفتية التى كانت فى طريقها لاجتياح شرق الدولة الإسلامية.

---

(١) الهروى : طبقات اكبرى، ترجمة من الفارسية د. عبد القادر الشاذلى بعنوان "المسلمون فى الهند، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٣، ٢٤.

(*) يذهب بارتولد أن اسم سبكتكين كلمة تركية مكونة من مقطعين سبك محرفة من اللفظ التركى Sevik بمعنى المحبوب ، أما المقطع الثانى تكين بمعنى أمير ، تركستان ص ٣٩٨.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٧.

استفاد سبكتكين من هذه الظروف. فوحد القبائل الأفغانية، وهى قبائل جبلية محاربة فتية وأحسن تنظيمهم وتدريبهم، وضمهم إلى جيشه، واستخدمهم فى توطيد نفوذه بغزنة وما حولها. واستولى على ولاية بست وبلخ وبخارى وقلعة قصدار (من مدن السند) وسجستان، ودان لطاعته أمراء جوزجان والختل والصغانيان. وولى ابنه محمود ولاية خراسان مكافأة له على قمع الأتراك القره خانيين بناء على استنجاد البلاط السامانى، وهكذا أصبح الحاكم المطلق فى جميع ولايات ما وراء النهر، ولم يكن للأمير السامانى أى نفوذ أو سلطان.

وجه سبكتكين بعد ذلك عنايته لتوطيد نفوذه فى وادى كابل وبذلك وجد نفسه وجها لوجه مع الهندوستان، بلاد الهند الوثنية، فعقد عزمه على الغزو والجهاد. وقد ساعده على ذلك عدة عوامل منها :

أولاً : رغبته فى توطيد نفوذه على وادى كابل فقاده ذلك للاحتكاك بالممالك الهندية فى الشمال مثل جيبال والبنجاب. فضلا عن الامارات الهندوسية فى الجنوب. وكانت هذه الامارات فى صراع دائم من أجل النفوذ والسلطة مما أدى إلى إضعافها وسهولة خضوعها للقوة الإسلامية الدافقة.

ثانياً : أن الزحف الإسلامى على ممالك الهند كان قد توقف منذ عهد الخليفة المعتصم. فنسى الأمراء الهنود أمر التهديد الإسلامى، ولم يخطر ببالهم أن يعاود المسلمون هجماتهم من جديد التى كانت مفاجأة بالنسبة لهم لم يعدوا لها عدتها.

ثالثاً : يضيف الدكتور حسن أحمد محمود عاملاً آخر فيرى أن سبكتكين قد تجمعت له قوة جبارة هى قوة الأتراك الذين دخلوا فى الإسلام حديثا. وأصبحوا متشوقين للجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام ووجدوا فى فتح بلاد الهند الوثنية متنفسا لرغبتهم. (١)

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، ص ٢٠٩، ٢١٠.

السلطان محمود بن سبكتكين

بعد وفاة سبكتكين تولي ابنه الأكبر إسماعيل، ولكن حكمه لم يدم سوى سبعة أشهر فقط، إذ تغلب عليه أخوه الأمير محمود، واستأثر بحكم الدولة الغزنوية، فأظهر قدرات عسكرية جبارة، وطموحاً واسعاً، وطاقات لا تعرف الكلل فقام بتوسيع دولته واستولى على بلخ وخراسان، وفي سنة ٤٠٧هـ استولى على إقليم خوارزم وفي سنة ٤١٨هـ استولى على الري وحاز خزائن ملوكها، وانتقل منها إلى أصفهان حيث اسند ولايتهما إلى الأمير مسعود، واستغل فرصة ضعف الدولة السامانية ففرض نفوذه على إقليم ما وراء النهر، كما تصدى للبويهيين فانتزع منهم بلاد الجبل وقزوين، واكتملت سيطرته على شرق الدولة الإسلامية بهزيمته للتركمان، وحرصه على استئصال شافتهم. وطهر البلاد من المعارضين، فازدادت هيبته، وعظمت سطوته، وبلغ صوت طبول دولته إلى الأطراف. حتى لقب بلقب السلطان فكان أول من تلقب بهذا اللقب من أمراء البيت الغزنوي.

وجه السلطان محمود عنايته إلى بلاد الهند فقاد بنفسه ما لا يقل عن سبعة عشرة غزوة على مدى سبعة وعشرين سنة. وقد وجد في ذلك بسطا لنفوذه، ومجالاً لتحقيق بطولاته، ومتنفسا لطاقاته وطاقات جنوده الذين كانوا يتشوقون للجهاد في سبيل الله، وإعلاء راية الإسلام، وقد بلغت أعداد هذه الجيوش عند استعراضه لها عام ٤١٤هـ فكانت أربعة وخمسين ألفا من الفرسان وألف وخمسمائة من الفيلة، هذا فضلا عما انضم إليه من المطوعين الذين توافدوا عليه من كل حدب وصوب وقد امتلأت نفوسهم بالحمية الدينية والرغبة العارمة في القتال والجهاد، ويكفي أن نذكر أن عدد من انضم إليه من متطوعة بلاد ما وراء النهر فقط بلغ نحو عشرين ألفاً من المحاربين الأشداد، حتى ندرك مدى ما تميز به هذا الجيش من حماسة واندفاع.

في سنة ٣٩١ هـ هجم السلطان محمود على برشاور بجيشه فتصدى له

راجه جيبال بأعداد غفيرة من الفرسان والمشاة والفيلة، والتحم الفريقان فكان النصر حليفا للسلطان محمود الذي تمكن من هزيمة خصمه وأسره وعدد من أفراد أسرته وقتل عدة آلاف من فرسان جيشه، واستولى على أمواله وخزائنه ومنها حمائل من ذهب وجوهر يسمونها بلغه الهندوستان "مالا" كانت تساوى أموالا باهظة.

كانت الملتان من المحطات الأساسية في سلسلة فتوحات السلطان محمود. وكان حاكمها آنذاك داود بن نصر من الملاحدة – على حد تعبير المؤرخ نظام الدين بخشى الهروى فى كتابه "طبقات اكبرى" – فتوجه السلطان محمود إليها سنة ٣٩٦هـ وحاصرها سبعة أيام، فلما أدرك حاكمها أنه لا قبل له بالسلطان الغزنوى أعلن دخوله في طاعته متعهداً بدفع جزية سنوية قدرها عشرين ألف درهم فضلا عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وتعاليم الإسلام معلنا بذلك توبته، غير أنه سرعان ما نقض عهده وأعلن عصيانه. الأمر الذى أدى إلى تجدد الحرب بينهما سنة ٤٠١هـ انتهت باستيلاء السلطان محمود على الملتان، وقتل الكفار والملاحده فيها، وأسر داود بن نصر وحمله إلى غزنه ليحبسه فى إحدى قلاعها حتى الموت(١).

كان فتح سومناة من اعظم فتوحاته، وهى بلدة مشهورة على ساحل المحيط الهندى. وكانت خطورتها كما يذكر القزوينى " أنه كان بها هيكل فيه صنم اسمه سومناة، وكان هذا الصنم واقفا وسط البيت لا بقائمة من اسفله تدعمه، ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه، وكان أمر هذا الصنم عظيما عند الهند حيث كانوا يحجون إليه كل ليلة خسوف، وكان يجتمع عنده ما يزيد على مائة ألف إنسان، ويحملون إليه من الهدايا كل شئ نفيس، وكان له من الوقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية، وكانت سدنته ألف رجل من البراهمه لعبادته وخدمة الوفود، وخمسمائة أمة يغنين ويرقصن على باب الصنم وكل هؤلاء أرزاقهم من أوقاف الصنم".(٢)

---

(١) الهروى : طبقات اكبرى، ص ٢٥.

(٢) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٩٥.

حرص السلطان محمود على فتح سومناة وتخريب المعبد ، أملاً فى دخول الهنود إلى الإسلام فوصل إليها سنة ٤١٦هـ وقاتل الهنود الذين كانوا يدخلون إلى الصنم يبكون ويتضرعون، ثم يخرجون للقتال. فقتلوا حتى فنوا. وكان عدد القتلى يزيد على خمسين ألفا، ودخل السلطان المدينة واستولى على الخزائن والأموال والجوهر التى كانت مدفونة فى بيوت الأصنام، وقام بتحطيمها ووزعت أجزاؤها على عتبات المساجد والجوامع فى شتى الأصقاع، لذلك أطلق عليه لقب محطم الاصنام.

توج السلطان محمود غزاوته باستيلائه على إقليم كشمير وقنوج، وحاز على أموال لا تحصى وغنائم من الذهب والفضة فضلا عن الأسرى والفيلة. وقد أراد السلطان أن يظهر عظمة الإسلام وسطوته فأمر أن تصب هذه الأموال والخزائن فى مكان فسيح ليتمتع الجيش والرعية بالنظر إليها. وقد استغل هذه الأموال فى بناء المساجد والمدارس لنشر الإسلام واللغة العربية فى جميع البلاد المفتوحة[١].

جلال الدولة وجمال الملة محمد بن محمود سبكتكين

عندما توفى السلطان محمود سنة ٤٢١هـ كان ابنه الأكبر الأمير مسعود بأصفهان فقام بعض خواص السلطان باستدعاء الأمير محمد بن محمود الابن الأصغر للسلطان وأجلسوه على العرش على أن يتولى كبير الحجاب، وأعظم أمناء الدولة الأمير على قريب تدبير شئون الملك فى خدمته[٢]. وقد وجه الأمير محمد عنايته للنهوض بالبلاد، فأحسن إلى الرعية، وأنصف المظلومين ورفع الظلم عنهم، وفتح خزائن ماله، ووزع الأموال على الجميع، فاستفاد الغنى والفقير، وظهر الغنى فى عهده ونشر الأمن والأمان، فازدهرت التجارة، وأصبحت غزنة محطة للتجارة

---

(١) الهروى : طبقات اكبرى، ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) البيهقى : تاريخ البيهقى . ترجمة يحيى الخشاب، صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٦.

الدولية. ومقصداً للتجار من كل صوب، ونعم بالرفاهية الجيش والرعية[1].

وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت تلوح بوادر فتنة طاحنة بسبب ميل بعض الأمراء والقادة إلى الأمير شهاب الدين أبي سعيد مسعود، وقاد هذه الفتنة الأمير إياز بن إيماق الذى قام بتحريض عدداً من الغلمان والحرس، والقادة وكبار الشخصيات فى السلطنة، وكان منهم على بن عبد الله المسمى بعلى داية فشقوا عصا الطاعة على الأمير محمد[2]. وركبوا جيادهم، وخرجوا جميعاً متجهين إلى نيسابور للقاء الأمير مسعود ومبايعته. فلما علم الأمير محمد بذلك أرسل في أعقابهم جيشا جراراً بقيادة سونديراى هندو والتحم الفريقان، ودارت الدائرة على جيوش الأمير محمد، وقتل قائده وجمع غفير من جنوده، وأرسلوا رؤوسهم إليه، وتوجه الأمير إياز ومعه على دايه والغلمان إلى الأمير مسعود فقدموا له يمين الولاء والطاعة، وسألهم عن أحوال البلد فأجابوه، وأظهر لهم السرور والتكريم.

أخذ الأمير مسعود يعد للأمر عدته، فبعث عدداً من الاتباع لاستمالة قواد الجيش والرعية، وإثارة الرأى العام ضد الأمير محمد، وقد جاءت هذه المحاولات بنتائجها المرجوة فبعد أربعة أشهر فقط من توليه الأمير العرش. استغل قادة الجيش فرصة خروجه من غزنه إلى بست لإقامة معسكراً هناك، فاتفقوا جميعا على خلعه وتوليه أخيه الأمير مسعود. وأرسلوا له رسالة جاء فيها "لما كان جميع الناس طائعين وموالين للأمير مسعود، فمن الأجدر ألا تقاومه، والصواب هو أن يحل محلك، وسنذهب إليه ونعتذر نيابة عنك، وسيدعوك حتى تأمن على أرواحنا وروحك[3]. وأرسلوا للأمير مسعود يخبرونه ببيعتهم له. وطاعتهم لسلطانه فى رسالة طويلة أورد المؤرخ البيهقى نصها كاملاً. ثم توجهوا إليه بالجيش كله

---

(١) بخشى الهروى: طبقات اكبرى، ص ٣٥.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ص٢، ص ١٥٧.

(٣) بخشى الهروى : المصدر السابق، ص ٣٥، ٣٦.

والخزائن لتنتهى بذلك فترة حكم الأمير محمد بعد خمسة أشهر فقط بحبسه في قلعة ترغفد ببلاد الهند(١).

الأمير أبو سعيد مسعود بن السلطان محمود الغزنوى

عندما لحق قادة الجيش بالأمير مسعود معلنين له الولاء والطاعة قوى ساعده، وشجعه على ذلك أن الخلافة العباسية أقرته على ما بيده من ولايات. فقد أرسل إليه الخليفة القادر بالله منشوراً جاء فيه "إن كل الأملاك الموروثة والمكتسبة وما يستجد فتحه كلها له. وقرئ هذا المنشور على الملأ. كما أرسل إليه اللواء والخلع والطوق والقلادة والتاج، فسلمها واحده واحده، ودعا للسلطان ليبارك له الله" فنال الأنعام والأكرام"، ودخل غزنة فاستقبله الأهالى بالفرح والسرور، ونثروا الدراهم والدنانير استبشارا بمقدمه، وأخذ يعيد تنظيم أمور بلاده الداخلية، وأمر بتعقب الخارجين عليه وأعدائه فقتل منهم من قبل، ونفى من نفى، وتفقد الولايات، وعمر النواحى، وسعى للعدل والانصاف والإحسان إلى الرعية ورفع الظلم والضرر عنهم(٢).

واصل الأمير مسعود فتوحاته في بلاد الهند، ففى سنة ٤٢٢ هـ هاجم قلعة سرستي وماحولها في وادى كشمير وحاصرها وفتحها، وعاد محملاً بالغنائم، كما فتح بعض القلاع المجاورة(٣).

أما حروبه مع التركمان فقد كانت هى السمة الغالبة على فترة حكمه. فما أن تنتهى حربا حتى تنشب أخرى، وكان سببها هو تعدى هذه القبائل الرعوية على حدود مملكته والاعتداء على رعيته الذين جأروا بالشكوى منهم مثلما حدث فى سنة ٤٢٢هـ عندما اشتكى أهالى سرخس وأبيورد، وفى سنة ٤٢٥هـ تكررت شكوى وتظلم أهالى نيسابور منهم. فأرسل إليهم الجيوش لمحاربتهم وكان النصر سجالا

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى، ص ٢، ٣.

(٢) البيهقى : المصدر السابق، ص ١٧، ٣٩٣.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ١٥٨.

مرة لهم ومرة عليهم. فلما زاد فسادهم في النواحي والأطراف أمر السلطان مسعود سنة ٤٢٨هـ جيوشه بالتحرك لقتالهم. ولما علموا بذلك أرسلوا إليه رسالة جاء فيها "إننا مازلنا أتباعك فلو حددت لنا مرعانا حتى يكون فيها دوابنا وأهلنا وعيالنا. نكون دائما في خدمتك" فقبل الأمير التماسهم وعين لهم حدود مرعاهم وأرسل رسولاً إلى قائدهم بيغو ليأخذ عليه عهدا بالإلتزام بحدود مرعاهم، وعدم التعدي على رعيته. ولكن التركمان لم يلتزموا بعهدهم فنقضوه.

وتجددت الاشتباكات وكان أخطرها ماحدث سنة ٤٣١هـ عندما هاجموا أطراف مملكته فخرج الأمير بنفسه لمحاربتهم، وفي أثناء المعركة انسحب أكثر قادة جيشه، وتقهقروا إلى غزنة، ووقف الأمير مسعود يحارب ومعه قلة من جنده، لذلك وجه همه بعد خروجه من هذه المعركة إلى تصفية المتقهقرين وقبض عليهم ونفاهم إلى الهندوستان وحبسهم في القلاع[1].

عزم الأمير مسعود على الانتقال إلى الهند حتى يستعيد قوته وسلطته بعد هذه المعارك الضارية. وحمل معه أموال وخزائن السلطان محمود. كما أرسل رسولاً ليحضر أخيه الأمير محمد من محبسه.

وفي الطريق قام بعض غلمانه بنهب خزائنه، ولما خشوا من سطوة انتقامه، توجهوا إلى الأمير محمد وأعلنوا له الولاء والطاعة وألزموه بقبول السلطة. وهجموا على السلطان مسعود في جماعة من العسكر والتقى الفريقان في منتصف ربيع الآخر من سنة ٤٣٢هـ، واقتتلوا أشد قتال فانهزم مسعود وجماعته، وتحصن بأحد الأربطة. فأخرجوه وحبسوه في قلعة كيدي. وأمر أخوه بإكرامه وصيانته[2]. ولكن غلمانه أرسلوا رسالة كاذبة بلسان الأمير محمد إلى (كوتوال كيدى) يأمره بقتل الأمير مسعود وإرسال رأسه إليه، وبموجب هذه الرسالة تم فصل رأسه

---

(١) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص ٥٤٤.

الهروي : طبقات اكبري، ص ٣٩.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ١٦٤، ١٦٥.

وأرسلت إلى الأمير محمد الذى بكى كثيراً، ولام هؤلاء على مسعاهم[1].

وكان السلطان مسعود كثير الصدقة، تصدق مرة فى رمضان بألف درهم، وكان كثير الإحسان إلى العلماء فقصدوه، وصنفوا له التصانيف الكثيرة، وكان يكتب خطا حسناً، وكان ملكه عظيما فسيحاً، ملك أصفهان، والرى وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان وسجستان والسند وغزنة وبلاد الغور وأطاعه أهل البر والبحر[2].

شهاب الدين والدولة وقطب الملة أبو الفتح مودود بن مسعود

عندما وصل خبر مقتل الأمير مسعود إلى ابنه الأمير مودود، وكان فى قهستان، أراد أن يتوجه إلى حصن باريكله للانتقام لأبيه، ولكن بعض خواصه أثنوه عن عزمه، ونصحوه بأن يسرع إلى غزنة ليوطد نفوذه بها. واستجاب لهم واستقبله أهالى غزنة بالفرح وعزوه وبايعوه، ثم توجه بجيش جرار لمحاربة عمه الأمير محمد، والتقى الطرفان فى معركة حامية، نجح خلالها موود فى كسب ميراجل سيد منصور وكان من كبار قادة جيش الأمير محمد. فامتنع من مواصلة القتال الأمر الذى انعكس سلباً على أداء جيش الأمير محمد. وانتصر مودود، وتعقّب أعدائه بالقتل، وبنى هناك رباطاً وسوقا اسماه فتح أباد، وحمل معه تابوت أبيه وأخوته إلى غزنة سنة ٤٣٢هـ.

قام الأمير مودود بتدعيم نفوه، وتوطيد سلطانه، وأحسن السيرة فى رعيتّه، واحكم قبضة على ترمذ وبلخ، كما أن ملك الترك يورى تكين قدم له فروض الولاء والطاعة. وهزم التركمان أكثر من مرة، وأرسل عدة حملات إلى الهندوستان لبسط نفوذه وتأديب المتمردين، وقد وافته المنية سنة ٤٤٠هـ بعد تسع سنوات من الحكم[3].

---

(١) الهروى : طبقات اكبرى، ص ٤١.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٣) أبو الفدا : المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٠.

أمراء الدولة الغزنوية الأواخر[1]

بعد وفاة مودود تولى ابنه محمد الحكم، ولكنه كان طفلا صغيرا لا يتجاوز عمره الثالثة، وكان ذلك بمساعدة بعض خواص أبيه أملاً في الاستئثار بالسلطة دونه، غير أن بقية الأمراء رفضوا هذا الوضع فعزلوه، وعينوا مكانه على بن مسعود فلم تزد فترة حكمه على ثلاثة أشهر فقط.

وتولى بعده الأمير عبد الرشيد بن مسعود ولكن سرعان ما ثارت ضده فتنة قادها طغرل حاجب وكان من حاشية السلطان في سيستان. فخرج بجيشه متجها إلى غزنة لمحاربة عبد الرشيد، ودخلها وقتل الأمير الغزنوى وعددا من أولاده وأهل بيته، وتزوج من ابنه السلطان مسعود. وأعلن العفو العام أملاً فى كسب رضا الرعية. ولكن جماعة من خواص الدولة دخلوا عليه فمزقوه إربا، وأطلقوا سراح فرخ زاد بن مسعود وكان محبوسا، وأجلسوه على العرش. فتتبع كل من أعان على قتل عبد الرشيد فقتله، ولكنه لم ينعم بالسلطنة، فقد استغل السلاجقة بقيادة السلطان ألب أرسلان فرصة ضعف الدولة الغزنوية، وأخذوا يشنون عليها هجماتهم طمعا فى أملاكها. وأسروا عددا من قوادهم. وانتهت حلقات الصراع لصالح تلك القوة الجديدة الفتية بعقد صلح نص على إطلاق سراح الأسرى من الطرفين.

ثم تولى بعده إبراهيم بن مسعود وكان سلطاناً عادلاً وزاهداً اشتهر بحسن الراى والتدبير وكان يكتب خطا جميلا، ويرسل كل عام مصحفا بخطه وأموالا كثيرة إلى مكة، وقد استغل فرصة الصلح مع السلاجقة فتفرغ لمواصلة حملاته إلى بلاد الهند، فاستولى على كثير من البقاع والقلاع، وعاد إلى حاضرته محملاً بالغنائم والأسرى، وكانت وفاته سنة ٤٨١هـ، بعد أن أمضى فى حكم البلاد ثلاثين سنة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هؤلاء الأمراء يمكن الرجوع إلى الهروى : طبقات اكبرى، ص ٤١ وما بعدها.

ثم حل ابنه مسعود محله فى حكم الدولة، وقد استمرت فترة حكمه ستة عشرة سنة، ليتسلم أمور دولته ابنه أرسلان شاه بعد وفاته. فقبض على جميع أخوته وحبسهم الا بهرامشاه الذى فر وتوجه إلى السلطان سنجر بخراسان الذى حاول القيام بدور كبير فى إزالة أسباب الشقاق بين الأخوين ولكن محاولاته باءت بالفشل أمام تعنت أرسلان شاه. الأمر الذى اثار حفيظة السلطان سنجر فهجم بجيوشه على غزنة حيث دارت معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة ارسلان شاه، وفراره إلى بلاد الهند، أما السلطان سنجر فدخل إلى غزنة منتصرا، وتوقف بها أربعين يوما سلم خلالها الولاية لبهرامشاه ثم عاد إلى خراسان. ولما علم أرسلان بعودة السلطان سنجر إلى خراسان تحرك بجيشه إلى غزنة لمحاربة أخيه الذى استنجد بالسلطان سنجر مرة ثانية، فأمده بجيش كبير فخاف أرسلان وخرج من غزنة واختفى، فتعقبه السلطان سنجر وقبض عليه وسلمه إلى أخيه بهرامشاه فقتله وكانت مده حكمة ثلاث سنوات.

أما عن بهرامشاه فقد دام حكمه خمسة وثلاثون عاما، عمل خلالها على بسط نفوذه على البلاد، والنهوض بأحوالها. وقاد الجيوش على الهندوستان. ففتح البلاد والقلاع، وحاز الغنائم. وقضى على المتمردين الخارجين، كما قاد نهضة ثقافية كبرى. وأصبح البلاط الغزنوى فى عهده قلعة للعلم والعلماء والأدباء والفضلاء، وصنفت فى عهده كتب كثيرة. وتوفى سنة ٥٤٧هـ.

وبعد وفاته تولى ابنه خسرو شاه، وفى عهده ضعفت الدولة الغزنوية، وطمع فيها الطامعون فعجز عن مقاومتهم. فترك غزنة وفر إلى الهند، واتخذ من لاهور عاصمة له وبعد وفاته تولى ابنه خسرو ملك ليشهد عهده زوال الدولة الغزنوية سنة ٥٨٣هـ بعد أن استشرى فيها الفساد والضعف.

علاقة الدولة الغزنوية بالخلافة العباسية

كانت العلاقة بين الدولة الغزنوية والخلافة العباسية قائمة على أسس قوية من الود والتقارب، وقد ساعد على تدعيم أواصرها المصالح المشتركة لكل منهما. فبالنسبة للخلافة العباسية :

كانت تمر بمرحلة من الضعف والتردى، حيث ضعفت سلطة الخلفاء، وعجزوا عن تدبير أمور دولتهم وكبح جماح الأمراء والقادة الأتراك، فاستأثروا بالأمور دونهم، وطغت الساحة السياسية بحروبهم وصراعاتهم، فانتشرت الفوضى، وعم الفساد، ولم تكن الأحوال السياسية أحسن حالا فى ظل السيطرة البويهية على الخلافة، حيث فرضوا نفوذهم عليها، وحكموا العالم الإسلامى باسمها، ولم يتورعوا عن التعدى على الخلفاء، وانتقاص حقوقهم، فيذكر ابن الأثير أن معز الدولة البويهى أهان الخليفة المستكفى وقبض عليه، ولما أحاطوا به رضى أن يخلع نفسه بشرط إلا يقطعوا شيئا من اعضائه، ولكنهم لم يفوا بعهدهم فسملوا عينيه، وولى المطيع الخلافة فحددوا له ألف درهم فى اليوم ثم قطعوا ذلك الراتب وحددوا له اقطاعات يسيرة يعيش منها. وقد علق المؤرخون على تدهور الخلافة، بقولهم "وازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق لهم من الأمر شئ. وتسلم نواب معز الدولة العراق بأسره، ولم يبق فى يد الخليفة غير ما أقطعه معز الدولة له مما يقوم ببعض حاجته"[1].

ومما زاد من خطورة الأمر، وحرج موقف الخلافة العباسية هو تزايد المد الشيعى فى العالم الإسلامى بقيام الخلافة الفاطمية فى مصر والمغرب، وبث الدعاة لنشر المذهب الشيعى فى بلاد العراق وفارس، وما وراء النهر، وتشيع البويهيون أنفسهم حتى أنهم فكروا فى إزالة الخلافة العباسية السنية، وإقامة خلافة علوية شيعية مكانها، ولم يمنعهم عن ذلك سوى خوفهم على سلطانهم ونفوذهم على نحو

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٦، ص ٣١٥؛.
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢.

ما ذكرنا آنفا[1].

كل هذا والخلافة العباسية التى كان يتعين عليها حماية المذهب السنى، ونشره، والدفاع عنه اكتفت بموقف المتفرج لذلك عندما ظهرت القوة الغزنوية السنية على ساحة الأحداث معلنين ولائهم وطاعتهم واحترامهم الكامل للخلافة العباسية، ومنصبين أنفسهم حماة للمذهب السنى، وحرباً على التشييع، رأت فيهم الخلافة طوق النجاة لتحقيق نوعا من التوازن فى الصراع السياسى والمذهبى بين القوى المتناحرة.

أما بالنسبة للدولة الغزنوية، فكانت مصالحها تتلخص فى حرص الأمراء الغزنويين على إضفاء الصفة الشرعية على حكمهم، عن طريق اعتراف الخلافة العباسية بهم، وإقرارها بشرعية حكمهم، فيكتسبوا بذلك هيبة فى نفوس رعاياهم، مما يساعد على توطيد نفوذهم وبسط سلطانهم.

صاغت هذه المصالح والأهداف المشتركة بين الغزنويين والعباسيين شكل العلاقة بينهما فجنحت نحو التقارب حيث حرصت الدولة الغزنوية على إقامة الخطبة للخليفة العباسى، ونقش اسمه على السكة، وإعلان الولاء والطاعة له فى كل مناسبة، والدفاع عنه، ومحاربة الخارجين عليه. يذكر بارتولد أنه فى سنة ٩٩٩م أحرز السلطان محمود نصراً عظيما على أعدائه السامانيين وكان من نتائجه أن وقعت خراسان بأجمعها فى قبضته، فأرسل السلطان محمود رسالة إلى الخليفة العباسى القادر بالله يخبره بأنباء هذا النصر، ويؤكد أن سبب الحرب كان امتناعهم عن الاعتراف بالخليفة"[2].

بالغ الغزنويين فى إظهار خضوعهم للخلافة العباسية، والتعصب لمذهبها،

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ج٧، ص ٤٤٥

ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٦١، ٢٦٩، ٣٢٠، ٧١٩.

(٢) بارتولد : تركستان، ص ٤٠٤، ٤٠٥.

وتعاليمها ففى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م ارسل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله رسولاً إلى السلطان محمود يدعوه للدخول فى الدعوة الإسماعيلية، فاستنكر السلطان محمود ذلك، وأغلظ القول للرسول، وبعث برسالة للخليفة العباسي يخبره بالواقعة، ويؤكد على عدائه للتشيع(١).

وقد تكررت هذه المحاولة مرة أخرى فى عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمى الذى أرسل إلى السلطان محمود كتابا يدعوه فيه إلى طاعته، وأرسل إليه بالخلع والطرائف. كما أرسل إلى وزيره حسنك بإحدى هذه الخلع وكان حسنك آنذاك رئيسا على بعثة الحج الغزنوية. وقد استقبله رسول الفاطميين فى طريق عودته عبر بلاد الشام التى كانت تحت السيادة الفاطمية. فاضطر حسنك إلى أن يقبل هذه الخلع خوفا على حياة وسلامة من معه من الحجاج. الأمر الذى أثار غضب الخليفة العباسى القادر بالله فأرسل إلى السلطان محمود رسولا يبلغه استنكاره من تصرف الوزير. فما كان من السلطان محمود إلا أن أرسل الخلعة التى أخذها حسنك والطرائف والهدايا التى بعثها الفاطميون إليه، مع رسول الخليفة إلى بغداد حتى يحرقوها"(٢). إرضاءً للخليفة.

ولم يكتف بهذا بل تعقب القرامطة والشيعة فى بلاده فقبض عليهم، وحبسهم، ونفاهم، وأمر بلعنهم على المنابر، يقول صاحب شذارت الذهب فى حوادث سنة ٤٠٨هـ "بعث الخليفة القادر بالله إلى السلطان محمود بن سبكتكين يأمره ببث السنة بخراسان؛ فقتل العلويين وبالغ، ومثل بجماعة، ونفى جماعة كثيرة من المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، والمشبهة، وأمر بلعنهم على المنابر"(٣).

كما حرص السلطان محمود على أن يظهر بأنه سيف الخلافة البتار فى

---

(١) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : الدول الإسلامية المستقلة، ص ٩٩.

(٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ١٩١، ١٩٣، ١٩٤.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج ٣، ص١٨٦.

مواجهة أهل الكفر والضلال فكان يرسل عقب كل غزوة إلى الهند خطاباً إلى الخليفة يخبره فيه بأنباء الحرب، وما أحرزه من نصر للإسلام وما حازه من غنائم وأسلاب، وكان الخليفة يرسل له خطابات التشجيع والتأييد فيقرأها على رعيته وجنده إظهاراً لهيبته، وتأكيداً على شرعيته، وتدعيماً لموقفه، ففى سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م بعث السلطان محمود إلى الخليفة القادر بالله كتابا يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند جاء فيه "انتخب العبد ثلاثين الف فارس وعشرة آلاف راجل، وانضم إليه جماهير المطوعة، وخرج العبد من غزنة فى العام التاسع (٤٠٩هـ/١٠١٨م) بقلب منشرح للشهادة، ففتح قلاعا وحصونا وأسلم زهاء عشرين ألف من عباد الأوثان، وسلموا قدر ألف ألف درهم[١]. ولعلنا نلاحظ أسلوب التواضع التى يتحدث به السلطان محمود عن نفسه فى حضرة الخليفة العباسى.

أتت هذه السياسة بنتائجها المرجوة، فقد اعترفت بهم الخلافة العباسية، وأقرهم على حكم ما تحت أيديهم من ولايات، وأغدقت عليهم الخلع والألقاب يقول نظام الدين أحمد بخش الهروى فى كتابه المسمى طبقات اكبرى "فى هذه السنة (٤١٧هـ) كتب القادر بالله رسالة إلى السلطان محمود، وارسل لواء خراسان وهندوستان، وتيمروز وخوارزم، ولقب السلطان وأبناؤه وأخوته، فى هذه الرسالة بالألقاب، لقب السلطان بكهف الدولة والإسلام، والأمير مسعود بشهاب الدين وجمال المله والأمير محمد جلال الدولة وجمال المله، والأمير يوسف بعضد الدولة ومؤيد الملة، وكتب أن أى شخص توليه العهد نحن نرضى به أيضا". وكان الخليفة العباسى قد خلع على السلطان محمود أيضا لقب يمين الدولة وأمين الملة"[٢].

سارت الخلافة العباسية على هذا النهج فى عهد خلفاء السلطان محمود. فلما استوثق الأمر للسلطان مسعود. أقره الخليفة على مملكته، وأرسل إليه بالخلع

---

(١) عصام الدين عبد الرؤف : المرجع السابق، ص ١٠١.

(٢) الهروى : طبقات اكبرى ، ص ٢٣.

واللواء. يقول البيهقي "وصل منشور أمير المؤمنين القادر بالله... وقد أبلغه أمير المؤمنين في المنشور إقراره إياه على ما دخل في حوزته من ولايات الري والجبال وأصفهان، وأمره أن يعمل السير إلى خراسان كيلا يقع اضطراب في ذلك الثغر العظيم، كما وعده بأن يرسل إليه على الأثر ما طلبه من اللواء والعهد، والكرامات مع رسوله. وأطمأن خاطر الأمير مسعود بهذه الرسالة، واستبشر بها كثيرا، وأمر بأن تقرأ على الملأ، وبأن ينفخوا الأبواق، ويدقوا الطبول استبشارا، ونسخوا من تلك الرسالة صوراً، أرسلوها إلى أصفهان، وطارم، ونواحي الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور، وهراه، حتى يتأكد لدى الناس أنه خليفة أمير المؤمنين وولي عهد أبيه"[١].

دفعت هذه العلاقة الطيبة الخلافة العباسية على الاستنجاد بهم للتخلص من سيطرة البويهيين والقضاء عليهم فقد ذكر البيهقي نصا خطيرا على لسان السلطان مسعود جاء فيه " وأن أمير المؤمنين أعزنا بتأييده، وولانا بالمكاتبة حتى نسارع فنذهب إلى مدينة السلام، لنطهر مركز الخلافة من فرقة الأذناب، ونزيل عنها هذا الأثم"[٢]. ولكن انشغال الغزنويين بفتوحاتهم وتوسعاتهم في بلاد الهند، وحرصهم على تدعيم نفوذهم في مملكتهم دفعهم إلى عدم التورط في صراع كان من شأنه إعاقتهم عن تحقيق أهدافهم.

---

(١) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص ١٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٠.

السياسة الداخلية للدولة الغزنوية

حرص الغزنويون على بسط نفوذهم، وتوطيد أركان دولتهم فوضعوا نظاما إدارياً محكماً يضمن الإشراف الكامل على الولايات، وتنظيم أمورها، فكانوا يعنيون عليها ولاه، يشترط فيهم الولاء الكامل والطاعة، فضلا عن الكفاءة والثقة، وكان هؤلاء بدورهم يديرون شؤون ولاياتهم، ويجبون خراجها ويرسلون جزء من هذا الخراج إلى خزانة الدولة فى غزنة سنويا، يذكر البيهقى أن الأمير مسعود عين الأمير علاء الدولة أبي جعفر بن كاكو واليا على أصفهان وقد اشترط عليه أن يؤدى عن كل عام مائتى ألف دينار هروى، وعشرة آلاف ثوب من منسوجات تلك البلاد، ومن البغال والخيول المسرجة الكثير، ومن كل نوع من معدات السفر، فضلا عن الهدايا فى موسمى النيروز والمهرجان[١]. ولا يخفى على أحد أن أداء هذا الخراج هو دليل على الولاء والطاعة للدولة.

كان لهؤلاء الولاه وحكام الأقاليم مندوبين عنهم فى البلاط السلطانى يطلق عليهم وكلاء البلاط مهمتهم إنهاء ما يخصهم من أعمال، ومراقبة مصالحهم فى عاصمة الدولة[٢].

أما بالنسبة للولايات الهندية، فقد أولوها عناية خاصة فأنشأوا منصب نائب السلطان وكان يقيم عادة فى لاهور، ويُختار من الأمراء الغزنويين أنفسهم فقد تولاه مجدود[٣] حينا ثم تولاه مودود ابن مسعود حينا آخر سنة ٤٢٦هـ، وأحيانا كانوا يعهدون بهذا المنصب إلى بعض قادة الجيش الأكفاء، وكانت سلطتهم سلطة عسكرية فقط، إذ كانت مهمتهم احكام قبضتهم على البلاد التى دخلت فى حوزة الغزنويين، والمحافظة على انجازات الفتح، ومواصلة التوسع وضم المزيد من

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى، ص ١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٣٩.

البلاد. أما الأمور الدينية والسياسية فكانت في يد والى شيراز. ولعل تقسيم السلطة بهذا الشكل كان يهدف إلى عدم إطلاق يد هؤلاء الولاة، فلا يستقلوا بولاياتهم.

ومما يجدر ذكره أن الدولة الغزنوية فتحت الباب أمام المسلمين الهنود للمشاركة فى الحكومة المحلية، فأبقوا على الأمراء المحليين الذين أعلنوا إسلامهم، ودخلوا فى طاعتهم، ووافقوا على إرسال الخراج إليهم، كما سمحوا لهم بالانضمام للجيش، وتولى المناصب العسكرية العليا، وكانوا يشكلون نصف الجيش الغزنوى، كما حصلوا على جزيل العطايا والهبات(١). وكان من أشهرهم (تلك) الهندى التى تولى منصب نائب السلطنة فى عهد السلطان مسعود، وكان مترجماً حسن الخط يجيد الكتابة باللغة الفارسية والهندية.

حرصت الإدارة الغزنوية على مراقبة الولاة والعمال، عدم مجاملتهم، ومعاقبة المقصرين منهم ونقد أدائهم. ففى سنة ٤٢٢هـ لاحظ الخواجة وزير السلطان مسعود سوء أداء بعض العمال والكتاب فاستدعاهم إلى حاضرة البلاد لاستجوابهم، وتوجيه النقد إليهم. وفى ذلك يقول البيهقى". كان المستوفون والكتاب قد حضروا وجلسوا فى غاية النظام عن يمين المجلس وشماله، فالتفت إليهم الخواجة وخاطبهم قائلاً: لتكونن غدا على استعداد للإجابة على أى سؤال أوجهه لكم فى الحال دون إمهال او تسويف فإن الأمور إلى اليوم كانت تسير على أسوا حال، إذا كان كل يعمل على هواه، حتى تدهورت بسبب ذلك مصالح الدولة. فينبغى أن تغيروا سيركم وأن يشتغل كل منكم فيما يخصه. فلم ينبس أحدهم ببنت شفة وخافوا جميعا وجمدوا فى أماكنهم"(٢).

اعتمدت السلطة الغزنوية فى إدارة البلاد ايضا على تنظيم آخر تميز بالدقة والسرية وهو نظام الجاسوسية فبثوا العيون والجواسيس فى كل مكان "يحصون

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٢) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ١٦٨.

على الناس أنفاسهم -على حد قول مؤرخهم البيهقي- وينقلون إليهم كل ما يجرى من أحوال البلاد والعباد. وقد توسع السلاطين فى استخدام هذا الأسلوب حتى داخل القصر الغزنوى نفسه، فقد عين السلطان محمود جواسيس على أولاده وأخوته. وكان الأمراء بدورهم يعينون عيونا وآذانا على السلطان. ولاشك أن هذا النظام إن كان قد أفاد الدولة فى التعرف على بواطن الضعف والخطر فى دولتهم فتداركوها. إلا أنه كان له أثاراً سلبية فقد أسفر عن انعدام الثقة وتدهور العلاقة بين أفراد البيت الغزنوى[١].

ساعدت هذه النظم الإدارية على استقرار الأمور فى الدولة. خاصة فى الولايات الهندية حتى أن السلطان مسعود فكر فى أعقاب الهزائم التى منى بها من قبل السلاجقة أن ينقل عاصمة البلاد من غزنة إلى بلاد الهند ليستعيد هدوءه وتوازنه ولينطلق منها إلى محاربة السلاجقة مرة أخرى[٢].

أما عن علاقة السلاطين الغزنوية بالرعية، فقد حرصوا على تفقد ولاياتهم، والإحسان إلى رعيتهم وتقديم المساعدات لهم، ورفع الظلم عنهم، ففى سنة ٤٢٢هـ أصدر وزير السلطان مسعود قراراً جاء نصه كما يلى "بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول المصطفى محمد وآله أجمعين، وحسبى الله ونعم الوكيل، اللهم أعنى لما تحب وترضى برحمتك يا أرحم الراحمين. ليعط الفقراء والمساكين شكرا لله رب العالمين. من الورق (الدراهم المسكوكة) عشرة آلاف درهم، ومن الخبز عشرة آلاف، ومن اللحم خمسة آلاف، ومن الكرباس عشرة آلاف ذراع... ثم دعا المتظلمين وأرباب الحاجات فقدم عدد منهم فاستمع لمظالمهم وأنصفهم ثم صرفهم شاكرين وقال : إن مجلس الديوان، وباب السراى مفتوحان بلا حجاب، وليتقدم كل من له حاجة. فكثر دعاء الناس له

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ١٧ (المقدمة).

(٢) الهروى : طبقات اكبرى ، ص ٤٠.

وأملوا أنفسهم"[١].

هذه الصورة المشرقة لعلاقة الغزنويين برعاياهم . كانت تشوبها فى كثير من الأحيان بعض التصرفات الجائرة مثل إفراطهم فى استخدام أسلوب السخرة، فقد توسعوا في تسخير رعاياهم لبناء قصورهم وحدائقهم، وقد رصد لنا البيهقى صورة من صور هذه السخرة عند بناء الجوسق المسعودى فيقول : "وقد استغرق بناء هذا الجوسق أربع سنوات، وعلاوة على ما أنفق عليه من الأموال فإن عمال السخرة الذين اشتركوا في البناء كانوا أضعاف المأجورين- وقد سمعت عبد الملك المهندس يقول: لقد سجلت نفقات هذا الجوسق ألف ألف درهم سبع مرات، وسخروا للعمل به عمالا لو دفعت أجورهم لبلغت ضعفى هذا المبلغ"[٢].

ومن ناحية أخرى فقد اهتموا بالجيش وتنظيمه وحسن تدريبه، وأضافوا إليه دماء جديدة من سكان البلاد المفتوحة، ومن الهنود ممن دخلوا فى الإسلام. وأمدوه بالمال والعتاد. وأغدقوا على الجنود الهبات وكانت مرتباتهم تدفع لهم أربع مرات فى السنة. كما حرصوا على تفقد أحوالهم. واستعراض قوتهم فدانوا لهم بالطاعة . يقول البيهقى : "خرج السلطان مسعود فى موكب عظيم، وتقدم الجند فوجا فوجا، وكانت تبدو عليهم شيماء الطاعة والإخلاص لشدة تعلقهم بالسلطان حتى كأنهم يرون أنفسهم فى الجنة يتمتعون بما وعدهم من روح وريحان، وقد شمل السلطان الجميع بعطفه البالغ ولاطفهم بحديثه"[٣].

ونظراً لحملاتهم المستمرة وفتوحاتهم المتوالية فكانوا فى حاجة إلى زيادة عدد الجيش، مما دفع السلطان مسعود للقيام بخطوة جريئة غير محسوبة وهى الاستعانة بالتركمان، واستقدام أعدادا كبيرة منهم، وكان على رأسهم قزل وبوقة وكوكناش

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى، ص ١٦٨.

(٢) البيهقى : المصدر السابق، ص ٥٣٨.

(٣) البيهقى : المصدر السابق ص ٥٣.

وغيرهم من الرؤساء على الرغم مما عرفوا به من الشغب والميل إلى السلب والنهب والإفساد في ولاياته. وربما اعتقد السلطان مسعود أنه بهذا الإجراء سوف يكسب ودهم. ويفرض طاعته عليهم ويكسر شوكتهم . ويحول طاقتهم العسكرية إلى صالحه بدلا من أن تكون ضده. وبالفعل قام التركمان بمساعدته في بعض المهام والحملات العسكرية ولكن سرعان ما عادوا إلى ما كانوا عليه من السلب والنهب فقبض عليهم وأجلاهم(١).

النهضة الثقافية فى الدولة الغزنوية

فى إطار اهتمام الغزنويين بتدعيم أركان ملكهم، وتثبيت سلطانهم، والارتقاء ببلادهم، وجهوا عنايتهم نحو النهوض بالحياة الثقافية، والاهتمام بالعلوم والفنون، فأضحت غزنة حاضرة من حواضر الثقافة فى العالم الإسلامى. وقد شجع على ذلك ثراء البلاد وغناها. وكانت غنائم الهند وخزائن أموالها تعد معينا لا ينضب، ورافداً متدفقا لهذا الثراء، فضلا عن قوة الدولة وشدة سطوتها فرضت حالة من الأمن والاستقرار شجع على قيام النهضة، ثم طموح الغزنويين فى إقامة ملك قوى، وإضفاء كل مظاهر الفخامة والأبهة والرقي عليه حتى ينافس حاضرة الخلافة فى بغداد، وأخيراً كانت للفتوحات الإسلامية الغزنوية فى بلاد ما وراء النهر والهندوستان أثر بالغ فى هذه النهضة لسببين :

أولهما : أنها فتحت أمام علماء المسلمين افاقا جديدة للاتصال والتعرف على حضارات وثقافات هذه البلاد . فأطلع العرب ولأول مرة على علوم الهند وفنونها. فنهلوا منها، وأضافوا إليها مما أثرى نهضتهم الثقافية.

ثانيهما : أن سكان البلاد المفتوحة بدخولهم فى حوزة الدولة الإسلامية، واعتناقهم الإسلام، واتخاذهم اللغة العربية لسانا لهم، نبغ منهم العديد من العلماء

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٦٨.

والمفكرين والأدباء، اندمجوا في الحياة الثقافية وأسهموا فيها.

تجلى اهتمام الغزنويين بالنهضة الثقافية في توسعهم في إقامة المساجد، فقد كان سبكتكين يؤسس مسجدا في كل مدينة يقوم بفتحها[1]، والجدير بالذكر أن هذه المساجد لم تكن دورا للعبادة فحسب، بل كانت منارات لنشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية والمذهبي السني، وقد سار على نهجه ابنه السلطان محمود الذي خصص جزءا كبيرا من غنائم الهندوستان لبناء مسجده الشهير بغزنة، وبجواره بني مدرسة ألحق بها مكتبة كبيرة ضمت مؤلفات في شتى فروع العلم والمعرفة. وكان من أهم روافدها ما كانوا يحوزونه من ذخائر ونفائس الكتب من البلاد المفتوحة.

حرص السلاطين الغزنوية على استقدام العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء من كل مكان إلى بلاطهم، وأجزلوا لهم العطايا والهبات، وشجعوهم على البحث والإبداع، ومما يذكر في هذا الصدد أن السلطان مسعود عندما علم أن أمير خوارزم قد حشد في بلاطه عدداً من العلماء، أرسل إليه يقول " لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعاً إلى قصري حتى يتشرفوا بلقائي، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم". فاستجاب لأمره وسمح لهم بالتوجه إلى غزنة[2].

ازدهرت العلوم المختلفة في الدولة الغزنوية. وتأتي في مقدمتها العلوم الدينية مثل علم الحديث والتفسير والقراءات. وكان من أشهر العلماء في هذا المجال المحدث الشهير والعالم الجليل أحمد بن الحسين البيهقي وكان عالماً من علماء الحديث، نشر مذهب الأمام الشافعي في بلاده، وجمع مؤلفات الأمام في عشرة مجلدات ونشرها. كما ألف كتابا بعنوان "مناقب الشافعي" وآخر بعنوان "مناقب ابن

---

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ١١٧.
الهروي : طبقات اكبرى ، ص ٢٤.

(٢) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة، ص ١٣٤.

حنبل"[1].

أما عن أشهر الأدباء والمؤرخين فهو أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي. ولد في قرية بيهق في الجنوب الشرقي لخراسان سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م وتوفي في صفر سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م. وقد عاش مطلع حياته في نيسابور حيث تعلم علوم القرآن والحديث، وقرأ الآداب العربية. وعاشر أهل العلم والأدب. وكان عالما باللغة العربية والفارسية، والتحق بالعمل في ديوان الرسائل في عهد السلطان محمود وابنه السلطان مسعود، وكان في السابعة والعشرين من عمره، وظل يعمل في الديوان حتى أصبح رئيسا له في عهد السلطان عبد الرشيد، وفي عهده نشبت ثورة بقيادة طغرل وكان من مماليك السلطان محمد. قتل السلطان عبد الرشيد. وزج بأنصاره في السجن. واستمرت الفوضى أربعين يوما، ثم استرد فرخ زاد الملك، وقتل طغرل وأفرج عن المعتقلين، وكان البيهقي واحداً منهم. فعكف في بيته على القراءة والتأليف.

وللبيهقي مؤلفات عدة منها "زينة الكتاب" و"مقامات ابى نصر مشكان" و"أدب الإنشاء". وأخيراً تاريخ البيهقي. وهو كتاب يقع في ثلاثين جزء، وللأسف ضاع معظمه، ولم يبق منه سوى جزء واحد، وترجم إلى العربية، وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى معاصرة البيهقي للأحداث التي ذكرها في كتابه إذ كان شاهد عيان على كثير من الأحداث، وبالتالي فهو يعطي صورة صادقة عما جرى في البلاط الغزنوي أيام السلطان مسعود، وعن نظم الحكم، والعادات والتقاليد، والأعياد والرسوم، كما ضمن كتابه الكثير من الوثائق الرسمية والتي كان تدخل في حوزته بوصفه الكاتب المسؤول عن نسخها وحفظها مما جعل كتابه سجلاً فريدا لعصره[2]، يقول البيهقي في مقدمة كتابه "أما وقد تعرضت لهذا العمل فإني أود أن أودي حق

---

(١) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٥ وما بعدها.

التاريخ كاملا، وأن أبحث عن الخفايا حتى لا يخفى شئ من الحوادث وإذا طال هذا الكتاب وزاد ملل القراء منه، فإنى طامع بفضلهم ألا يعدونى من الثقلاء، فليس من حادث إلا وهو جدير بأن يقرأ ولا تخلو قصة من عبره"[١].

أما عن أشهر العلماء والمفكرين الذين زينوا البلاط الغزنوى فكان أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ولد فى كاث[٢] عاصمة بلاد خوارزم بآسيا الوسطى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م، وقيل فى سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م. وعرف فى الأوساط الثقافية فى الشرق والغرب الأوربى بلقب "الأستاذ".

أظهر البيرونى نبوغا كبيرا ومبكرا فى الرياضيات، والفلك والجغرافيا والتاريخ وغيرها من العلوم الأخرى. وفى العشرين من عمره انتقل البيرونى إلى بلاد جرجان، وعمل فى خدمة أميرها شمس المعالى قابوس بن وشمكير، وفى بلاطه تعرف على عدد من العلماء أشهرهم ابن سينا الذى ارتبط معه بصداقة عميقة أثمرت عدة مراسلات علمية قيمة، وفى هذه المرحلة بدأ فى التأليف ومكث بها عشر سنوات. ثم رجع إلى خوارزم سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م حيث عمل فى خدمة خوارزمشاه أبو العباس المأمون، وعاش فى بلاطه حياة مليئة بالدراسة والإنتاج العلمى حتى استولى محمود بن سبكتكين على بلاد خوارزم. واسر جماعة من العلماء كانوا يحيطون ببلاط خوارزمشاه. ومن بينهم البيرونى. ولما عرف قدره وعلمه حمله معه إلى غزنة، واصطحبه فى فتوحاته بشمال الهند حيث عكف على دراسة لغات أهلها ودياناتهم، وفلسفاتهم وعلومهم وثقافاتهم، ووضع عنهم وعن تاريخهم مؤلفات عظيمة ظلت أهم المراجع عن الهند. وبعد فترة طويلة قضاها فى الهند يقال أنها قرابة الأربعين عاما عاد إلى غزنة وانقطع إلى البحث والتأليف. وبعد وفاة السلطان محمود. ظل البيرونى على علاقاته الطيبة ببلاط غزنة فاتصل

---

(١) البيهقى : المصدر السابق ، ص ١١.

(٢) يقع هذا الإقليم الآن بجمهورية كازاخستان السوفيتية السابقة.

بالسلطان مسعود الذى قربه وأجزل له العطاء والهبات.

كان البيرونى يتقن اللغة العربية واليونانية والسريانية، والفارسية، والتركية والسنسكريتية. وكان يؤلف باللغة العربية لأنها أطوع وأسلس فى الكتابة. وللبيرونى العديد من المؤلفات فى علم الهندسة والفلك والحساب، والتاريخ والإلهيات. ومن أشهر كتبه "الاسطرلاب". كما أن له محاولة حساب نصف قطر الأرض وهو ما يعرف فى الغرب الأوربى بـــ "قاعدة البيرونى"، وله كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة" يتحدث فيه عن علوم الهند وديانتها. وله كتاب آخر نفيس بعنوان "الجماهر فى معرفة الجواهر". والحقيقة أن هذا العالم الفذ لم يترك مجالا من مجالات العلم إلا وطرقه وصنف فيه حتى بلغت مؤلفاته حمل بعير كما يذكر ياقوت الحموى. فى حين قدرها مؤرخوا العلم بمائة وثمانين مصنفا بين كتاب ورسالة ومقالة ترجمت معظمها إلى لغات العالم.

عرف البيرونى بحسن الخلق، وسعة الأفق والتواضع الجم، والزهد فى مباهج الحياة. فحين أهدى إلى السلطان مسعود الغزنوى كتابه "القانون المسعودى" كافأه بحمل فيل من النقود الفضية، ولكن البيرونى رده إلى بيت المال معتذرا بأنه لا حاجه له إلى ذلك. وكان لا يمل من الاستزاده من العلم حتى قيل أن العلم لم يكن يفارق يده، وعينه النظر، وقلبه الفكر إلا فى الأعياد.[١]

وفضلا عن ذلك حشد الغزنويون فى بلاطهم عددا كبيرا من الأدباء والشعراء والظرفاء يقال أن عددهم فاق الاربعمائة شاعر. كانوا يتغنون بمآثرهم وانتصاراتهم، ويحفظون بطولاتهم وفتوحاتهم. وكان من أشهرهم الشاعر العنصرى الذى خلد معارك وفتوحات السلطان محمود فى عدد من الدواوين الشعرية فاستحق أن يلقب بملك الشعراء.

---

(١) محمد غريب حمودة : عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، الهيئة العامة للكتـــاب، مصر، ٢٠٠٤م، ص ١٥٥ وما بعدها.

أما من الأدباء فيأتي في مقدمتهم بديع الزمان الهمذاني الذي وُصف بأنه بديع عصره أو معجزة زمانه في الفصاحة والبيان وحسن النظم. صاحب المقامات الشهيرة والتي بلغ عددها أربعمائة مقالة. وقد خصص بعضها في مدح السلطان محمود وقد لاقت شهرة كبيرة، وبلغ صيتها في الآفاق.

أما أشهر المترجمين في البلاط الغزنوي فكان "تلك الهندى" كان ابن حجام. ولكنه كان حسن اللقاء، فصيح اللسان، حسن الخط في الكتابة باللغة العربية والهندية والفارسية، أمضى جزء من حياته في كشمير حيث اشتغل بتحصيل العلم، ودخل في خدمة قاضى شيراز. فأكرمه وذاع صيته حتى اختص به الوزير أحمد حسن وزير السلطان محمود الغزنوى فعينه كاتبا ومترجما فيما يخص الهنود. ولما علم السلطان محمود به، وخبر حكمته، وذكاءه، وفطنته قربه إليه، وجعله من أخص خواصه.

ظل تلك متمتعا بمكانته في عهد السلطان مسعود الذي استخدمه كهمزة وصل بينه وبين بنى جلدته من الهنود، ونجح في كسب ودهم ورضاهم. وبفضله دخلوا في طاعة الدولة الغزنوية. يقول البيهقي "وقد أدى تلك في الخفاء خدمات جلى للسلطان مسعود فقد أدخل في طاعته جميع هنود كتور وبعض البيرونيين. وقام بمثل هذه الأعمال الخطيرة مع سلطان عظيم كمحمود".

وإزاء هذا الدور الكبير الذي لعبه تلك الهندى الكاتب والمترجم والسياسى حظى بمنزلة شريفة في الدولة الغزنوية فقد خلع عليه السلطان الخلع الذهبية، والبسه في رقبته طوقا مذهبا مرصعاً بالجواهر، ومنحه الخيل وذاع صيته حتى عمل لنفسه سرادقا صغيرا ومظلة وكانوا يدقون له الطبل أثناء مسيرة حسب الرسم عند عظماء الهند. وكانت له راية مع الطبول. وبلغ من مكانته أنه كان يجالس الأعيان في خلوتهم، ويشارك في تدبير الأمور، وفي سنة ٤٠٩هـ كتب قاضى شيراز إلى السلطان مسعود يخبره بأن شيراز في حاجة إلى قائد نابه مشهور ليقود

الجيوش بها، ويرأس رجالها. فلم يجد سوى تلك الهندى. فجهز له جيشا عظيما من الفرسان والرجالة كلهم على أهبة الاستعداد، وجهز له خلعة فاخرة، وأمده بجواد قائد الهند، وخرج السلطان لتوديعه بنفسه وتلطف فى حديثه معه. فترحل تلك وقبل الأرض بين يدى السلطان وركب متوجها إلى شيراز(١).

وفضلا عن العلوم والآداب ازدهرت الفنون وكان فى مقدمتها فن البناء والعمارة الذى بلغ درجة عالية من الرقى والإبداع، تجلى هذا فى منشآت الغزنوية العديدة مثل القصور السلطانية والجواسق، والمدارس والمساجد، وغيرها من المبانى التى ورد وصفها، وذكرها فى كتب المؤرخين المعاصرين، وكان السلطان مسعود صاحب فن رفيع فى هذا المجال، فهو الذى صمم الجوسق المسعودى، ووضع أسسه الهندسية، وأشرف على بنائه وتجهيزه فكان أية للفن المعمارى فى ذلك الوقت. يقول البيهقى "وكان الجوسق المسعودى، قد تم إعداده، فسار إليه (يقصد السلطان) ضحى أحد الأيام فتفقده واطلع على مرافقه، وعين منازل الموظفين، وأوثقه بيوت غلمان السراى، ودواوين الوزير، والعارض وصاحب ديوان الرسائل والوكيل - وسارع الرجال إلى إنجاز العمل، وأخذ كل منهم يعد مكانه، وانهمك الفراشون فى فرش السجاد وتعليق الستائر، ولم ير أحد مثل هذا الجوسق فى أى بلد ولم يشيد ملك مثله، وتم تشييده بمعرفة السلطان الذى رسم تخطيطه، ثم هندسه بيديه الكريمتين وكان رضى الله عنه أية فى مثل هذه الامور وخاصة الهندسة".

ولما كان الناس على دين ملكوهم يقلدونهم ويسيرون على نهجهم، فقد توسع الأهالى فى بناء الدور والبيوت وأحاطتها بالحدائق الغناء، وزودها بكل وسائل الترف والراحة(٢).

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى، ص ٤٣٠-٤٣٣.

(٢) البيهقى : المصدر السابق، ص ٥٣٧.

تدهور الدولة الغزنوية وزوالها

تعددت العوامل التى ساعدت على إضعاف الدولة الغزنوية وزوالها وكان فى مقدمتها :

أولاً : انقسام البيت الغزنوى. والصراع بين الأمراء. وقد بدأت هذه المشكلة منذ عهد السلطان محمود الذى عهد لابنه مسعود بولاية العهد، وأخذ يعده للسلطنة. إلا ان الوشاة بذروا بذور الفتنة فساءت العلاقة بينهما. وقرر السلطان محمود عزل ابنه من ولاية العهد. وتوليه ابنه الأصغر محمد بدلا منه، كما أرسل الرقاع إلى الملوك والحكام تضمنت عزله ولده مسعود "لأنه ولد عاق" بل إنه غير خطبة ابنة الأمير يوسف والتى كانت باسم مسعود إلى ابنه محمد، وعين كل منهما جواسيسا على الآخر، وزاد من انقسام البيت الغزنوى مشاركة نساء القصر فى هذا الصراع فقد انضمت الحرة الختلية أخت السلطان محمود إلى ابن اخيها مسعود، وكانت تخبره بكل ما يصل إلى مسامعها من دسائس ومؤامرات. بلغت المشكلة ذروتها فى أواخر عهد السلطان محمود عندما حاول بعض غلمان ابنه مسعود وأعوانه أن يعزلوه، وينصبوا أميرهم مكانه، ولم يمنعهم من تنفيذ هذا المخطط سوى رفض الأمير أن يمس أحد أباه بسوء[1].

وعندما تولى الأمير محمد الحكم لم يمر خمسين يوما من حكمه حتى بدأت بوادر فتنة طاغية عصفت به، وانتهت بقيام القادة والأعيان بتسليم السلطة والجيش إلى الأمير مسعود على نحو ما رأينا[2].

وعندما آل الأمر للأمير مسعود. وضع نصب عينيه أن ينتقم من رجال السلطان محمود وخواصه فراح ينكل بهم قتلا ومصادرة وتشريدا، وأثر هذا الانتقام

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى، (المقدمة) ص ٢١- ٢٤ ، ٢٦ ، ص١٢٧.

(٢) المرجع السابق

على مصلحة الدولة نفسها إذ حرمها من خيرة وحكمة عدد من المخلصين المحموديين، فضلا عما أشاعه ذلك من فوضى واضطرابات في البلاد[1].

تعددت الحروب والصراعات بين أمراء البيت الغزنوى للوصول إلى السيادة والحكم وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة، بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين بهم للنيل منهم. مثل استعانة الأمير بهرامشاة بالسلاجقة ضد أخيه أرسلان شاه[2].

ومن ناحية أخرى أغرى هذا الانقسام بعض الأمراء وحكام الأقاليم بالاستقلال عن الدولة الغزنوية . فتعددت الحركات الانفصالية، وعلى الرغم من محاولات الدولة في إحباط هذه الحركات، فقد كلفتها الكثير من الوقت والجهد والمال. كما أسهمت في استنزاف طاقتها واضعفها[3].

على أن نهاية الدولة الغزنوية وزوالها كان على يد جيرانها من السلاجقة والغور الأفغان. اللذين استغلا فرصة ضعفها وانقسامها، فسعت كل منهما للاستيلاء على ممتلكاتها، واستقطاع الأقاليم التابعة لها. بالنسبة للسلاجقة الأتراك بدأت علاقاتهم بالدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود الذى سمح لهم بالاستقرار في الأراضي المحيطة ببخارى ، محددا لهم أماكن أقامتهم ورعيهم. وقد التزموا بهذه المناطق خوفا من سطوته وشدة تنكيله، ولكن عقب وفاته استغلوا الفرصة فقاموا يتوسعون على حساب الدول الغزنوية. فاستولوا بقيادة طغرل على نيسابور، وفي سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م. سار متوجها إلى سرخس. فما علم السلطان مسعود بتحركاته. خرج لمواجهته. ودارت حرب بينهما انتهت بانتصار الدولة الغزنوية، وفرار السلاجقة.

---

(١) البيهقي : تاريخ البيهقي .

(٢) بخش الهروى، طبقات اكبرى، ص ٤٦.

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، ص ١٤٥.

كانت الحكمة تقضى أن يتتبع جيش مسعود فلول السلاجقة لاستئصال شأفتهم. إلا أن جنده قد أصابه الوهن والضعف فلم يفعل ذلك ، مما أعطى الفرصة للسلاجقة لتجميع قواهم والانقضاض من جديد على الدولة الغزنوية . فلم يجد السلطان مسعود سوى اللجوء إلى أسلوب المفاوضات التى انتهت بأن حدد لهم السلطان أماكن اقامتهم ومراعيهم فينزلوا فيها، ولا يتعرضون لأحد من الرعية. "نسلم إليكم هراه، ونسا وبارود وقراه، وهذه الصحراوات والحدود على شرط ألا تؤذوا المسلمين، ولا تتعرضوا لخيارهم أو أشرارهم. والا تصادروا أموالا أو تبغوا فتنة"(١).

وعلى الرغم من ذلك فقد اخذوا يتحينون الفرصة للانقضاض على أملاك الغزنويين. ووجدوا المجال متاحا عقب وفاة السلطان مسعود فاستولوا على طبرستان وجرجان وسجستان، وخوارزم والرى وهمذان وبلاد الجبل وكرمان وأصفهان. ولم يبقَ من ممالك الدولة الغزنوية سوى غزنة حاضرة البلاد وما حولها وممتلكاتهم الهندية.

وإذا كان السلاجقة قد لعبوا دوراً رئيسيا فى إضعاف الدولة الغزنوية فإن سقوطها كان على يد الغور الأفغان. وبلادهم تقع فى أفغانستان الحالية بين هراة وغزنة وكانوا لا يدينون بالإسلام. وكانوا قد دابوا على شن هجماتهم على الدولة الغزنوية يسلبون وينهبون مستغلين فى ذلك وعورة بلادهم الجبلية، وصعوبة مسالكها. وفى سنة ٤٠١هـ كون السلطان محمود جيشا كبيرا استولى به على بلادهم ونشر الإسلام بينهم. وأرسل إليهم الفقهاء والعلماء ليفقهوهم فى أمور دينهم. وعين زعمائهم على بلادهم تحت السيادة الغزنوية.

استغل أمراء الغور صراع الغزنويين مع اسلاجقة فاستولوا على غزنة. ولكن نجح السلطان بهرامشاه من استردادها. وعقب وفاته كرر الغور محاولتهم للاستيلاء على المدينة. فلما علم خسروشاه بزحفهم فارق غزنة، وقصد لاهور

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى.

الدولة الخوارزمية

(٥٩٠-٦٢٨هـ/١١٩٣-١٢٣١م)

كان الجد الأكبر للخوارزميين هو أنوشتكين غرجه، وكان فى الأصل مملوكا تركيا للأمر السلجوقى بلكانكين، وكان قد اشتراه من أحد أهالى غرجستان لذا نسب إليها[١]، ثم انتقل إلى خدمة السلطان السلجوقى ملكشاه، وشغل وظيفة الساقى فى بلاطه، ثم أخذ يترقى فى المراتب حتى تم تعيينه فى وظيفة طشتدار اى المشرف على الأوانى السلطانية، ولما كانت نفقات هذا الجانب من ميزانية البلاط تغطى من خراج خوارزم، لذا كان أنوشتكين قد حمل لقب حاكم خوارزم تجاوزاً، لأنه لم يكن فى واقع الأمر قد تولى حكم تلك البلاد[٢].

كان انوشتكين حسن الطريقة، اشتهر بالذكاء والمهارة، وحسن السياسة، فعلا محله، وسمت منزلته فى البلاط السلجوقى، حتى صار مقدما مرجوعا إليه، وقد انعكس ذلك فى تربيته لولده محمد، إذ أدبه فأحسن تأديبه[٣]، ونشأ جامعا بين الخبرة العسكرية، والأداب السلطانية والصفات الشخصية، وحب العلوم والأداب، مما لفت أنظار أحد قادة السلطان بركياروق إليه، فولاه أقليم خوارزم سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م. وتلقب بلقب قطب الدين خوارزمشاه. وقد أظهر كفاية وثقة فى إدارة شئون الإقليم. فأحسن إلى رعيته، ونشر العدل بينهم، ورفع المظالم عنهم، كما اهتم بالأداب. فقرب إليه أهل العلم والدين والأدب، الأمر الذى شجع السلطان سنجر السلجوقى عندما آلت إليه الأمور – أن يقره فى منصبه واليا على خوارزم. كما قربه إليه واصطحبه فى حروبه وأسفاره، وكان قطب الدين محمد فى محل ثقته فظل تابعا مخلصا له، يقوم بزيارة بلاطه من حين لآخر، أو يرسل ابنه أتسز عندما تحول ظروفه دون إتمام زيارته.

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢، مجلد (١)، ص ٢٠٩.

(٢) بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى.

(٣) أبو الفدا : المرجع السابق والصفحة.

توفى قطب الدولة محمد خوارزمشاه سنة ١١٢٧، ١١٢٨م. فخلفه ابنه أتسز الذى يعد المؤسس الحقيقى للدولة الخوارزمية، إذ وضع هو وخلفاؤه من بعده هدفا أساسيا وهو إقامة دولة مستقلة قوية، وظلوا يعملون على تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل فى مهارة ومثابرة نادرتين، ففى بداية أمره أظهر الولاء والخضوع للسلطان السلجوقى سنجر، وشارك معه فى حملاته لاخضاع بلاد ما وراء النهر، وبذلك كسب وده مما مكنه من التفرغ لتدعيم نفوذه وتوطيد سلطانه فى إقليم خوارزم، ثم اتجه نحو التوسع وضم ما جاوره من أراضى وولايات. الأمر الذى أسفر عن تصادم المصالح والمطامع بينه وبين السلطان السلجوقى.

بدأ الصدام بين السلطان سنجر وآتسز، عندما قام آتسز بإخضاع البدو الرحل المجاورين لخوارزم فى منطقتى جند وشبه جزيرة منقشلاغ، وتعقبهم فى جوف تركستان. وكان هؤلاء البدو يقومون بالسلب والإغارة على حدود إقليمه ويثيرون الفتن والاضطرابات مع رعاياه، وقد أثار هذا التصرف غضب السلطان سنجر الذى بدأ يشعر بخطورته وأطماعه، ولعب الوشاه والحاسدون دورا رئيسيا فى توتر العلاقة بينهما، فأرسل إليه السلطان يعنفه ويلومه لأنه وبدون موافقته على حد قوله "قد أراق دماء المسلمين بجند ومنقشلاغ التى عرف أهلها بإخلاصهم فى الدفاع عن ثغور الإسلام وجهادهم الدائب ضد الكفار"(١).

كشف أتسز عن نواياه العدائية، فقبض على رسل السلطان، وزج بهم فى السجن، وصادر ممتلكاتهم، وتوقع الحرب، فأعد لها عدتها. إذ أغلق جميع الطرق المؤدية إليه من خراسان، وعسكر فى قلعة حصينة من قلاع هزاراسب، وأغرق المنطقة المحيطة بالمعسكر لبضعة فراسخ لتعوق زحف الجيش السلجوقى نحوه، وهو أسلوب حربى كثيرا ما استخدمته الدولة الخوارزمية فيما بعد، إذ ما دهمها خطر الغزو وقد أتت هذه السياسة بنتائجها المرجوة فقد اضطر الجيش السلجوقى

---

(١) بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى.

إلى التقدم عن طريق الصحراء ولهذا كان سيره بطيئا للغاية. ولم يظهر السلطان سنجر استياءً أو تبرماً من هذا البطء، إذ وجد فيه فرصة لأتسز لعله يراجع نفسه ويعود إلى طاعته[1]. غير أن أتسز أصر على مواصلة الحرب والقتال فالتقى الطرفان فى معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة أتسز وفقد عشرة آلاف من جيشه ما بين قتيل وجريح وأسير، ولم يسلم ابن أتسز من الأسر فضربت رأسه وأرسلت إلى ما وراء النهر، وهرب أتسز، ودانت البلاد للسلطان سنجر الذى نصب ابن أخيه سليمان بن محمد حاكما على خوارزم.

لم يقف أتسز عند هزيمته طويلا، فسرعان ما عاد إلى خوارزم ، ونجح فى استعادتها بمساعدة الأهالى، واضطر سليمان بن محمد إلى الهرب إلى عمه، ورأى أتسز أنه فى حاجة إلى مهلة من الوقت حتى ينظم صفوفه، ويعيد ترتيب جيشه، وبالتالى فمن الحكمة أن يكسب ود السلطان فى هذه المرحلة، فأرسل إليه عهدا يعلن فيه ولاءه وطاعته، ولم يلبث على ذلك شهورا حتى حنث بعهده. فقد استغل فرصة خروج السلطان سنجر إلى ما وراء النهر لمحاربة قبائل القراخطاى، وهزيمته وتشتت جيشه، فخرج متوجها إلى مرو فنهبها، ثم قصد نيسابور سنة ١١٤٢م واستولى عليها، ووجه إلى أهالى المدينة منشورا لكسب ودهم وطاعتهم، وتأليبهم على النفوذ السلجوقى جاء فيه "إن ما حاق بسنجر كان جزاءا وفاقا على نكرانه الجميل الذى قابل به اخلاص خوارزمشاه فى خدمته، ولا ندرى إن كان ينفعه الندم فهو لن يجد عضدا أو صديقا لدولته مثلنا". وأمر أتسز بأن يذكر اسمه فى الخطبة على منابر نيسابور بدلا من السلطان السلجوقى ، ولكن لم يدم ذلك طويلا، فما هى إلا شهور حتى كان سنجر قد استعاد سلطانه على جميع أقليم خراسان.

تعددت الحروب والصراعات بين السلطان سنجر وأتسز الذى كانت سياسته تتلون حسب ظروفه فتارة يلجأ لأسلوب الحرب والقتال، وأحيانا إلى الغدر

---

(١) بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى.

والاغتيال. فإذا عجز عن تحقيق هدفه أظهر الولاء والطاعة. وطلب الصلح والوساطة، يتجلى ذلك عندما استأجر أتسز بعض فدائى الاسماعيلية، وعهد إليهم باغتيال السلطان فى مرو. فلما فشلت مهمتهم وذاع أمرهم، شن السلطان حملة على خوارزم واستولى عليها. فلم يجد أتسز بدا من طلب الصلح ووسط لذلك الزاهد أهويوش الذى كان يعيش على لحم الغزلان ويرتدى جلدها. ووافق سنجر على الصلح بشرط أن يظهر أتسز أمامه بشخصه ويعرب عن خضوعه وسلطانه غير أن أتسز عندما ظهر أمامه لم يقبل الأرض بين يديه، ولم يترجل عن صهوة جواده على عادة الولاة آنذاك واكتفى فقط بانحناءه من رأسه، ثم رجع من فوره، وعلى الرغم من أن ذلك كان يعد قصوراً فى واجب الاحترام تجاه السلطان – على حد تعبير المؤرخ بارتولد – إلا أن السلطان سنجر أبدى تسامحا وآثر السلامة، وعاد إلى حاضرته مرو. (١)

أما أتسز فقد استعاد خوارزم، وعمل على تدعيم نفوذه بها، والتوسع فى سلطانه فاستولى على جند ومنقشلاغ، وأخضع البدو المجاورين لبلاده، وعمل على تدعيم قواته العسكرية فأدخل إلى جيشه كتائب من المرتزقة الأتراك ساعدوه فى تحقيق انتصاراته العسكرية، وبذلك وضع أسس مملكة قوية مستقلة حتى وافته المنية عن عمر يناهز التاسعة والخمسين(٢).

خلف أتسز ابنه أيل أرسلان الذى سارع بدخول خوارزم وتأمين نفوذه بها. وفى سبيل ذلك لم يتورع عن قتل عددا من أعمامه، وسمل أخا له فمات بعد ثلاثة أيام، فتخلص بذلك من مناوئيه ومنافسيه على الحكم، وزاد فى عدد جيشه، وضم إليه مزيدا من الجنود المرتزقة، وزاد فى اقطاعتهم وأرزاقهم.

أما عـــن علاقاته مـــن السلاجقة، فقد اتـبع سياسة مغايرة تماما لسياسة أبيه

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٤٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧٩–٤٨٢.

إذ نأى بنفسه عن الدخول فى حروب وصراعات معهم. بل اعتمد على نظا
الدبلوماسية السياسية، وإعلان الطاعة لكسب ودهم. الأمر الذى دفع السلطان سنجر
أن يقره على ولاية خوارزم وأرسل إليه بالعهد والتقليد، وظل متبعا هذه السياسة في
عهد السلطان غياث الدين محمد بن محمود الذى خلف أباه سنجر بعد وفاته. إذ
أرسل إليه يعزيه ويهنئه فى نفس الوقت، ويخبره بأن قد أعلن الحداد الرسمى فى
مدينة خوارزم لمدة ثلاثة أيام حزنا على السلطان سنجر، وكان يدعو نفسه فى هذه
الرسائل باسم "الصديق المخلص".

هذا الموقف السلمى والدبلوماسية السياسية مكنت ايل ارسلان ان يلعب دور
الوساطة بين السلطان السلجوقى غياث الدين محمد بن محمود حاكم العراق وحفيد
ملكشاه وبين الخليفة العباسى. فقد أرسل غياث الدين سفارة إلى ايل أرسلان يخبره
بنيته فى المجئ إلى المشرق، والقيام برحلة تفقدية لبلاد ما وراء النهر وخراسان.
ولكن العداء بينه وبين الخليفة العباسى حال دون تنفيذ هذه الفكرة.

استغل ايل ارسلان هذه الفرصة ليلعب دورا رئيسيا على مستوى العلاقات
الدولية، فأرسل إلى السلطان يعرض عليه استعداده للتوفيق بينه وبين حكومة بغداد،
وإزالة الخلاف والعداء بينهما، وفعلا أرسل ايل ارسلان إلى وزير الخليفة المقتفى
سنة ١١٣٦م رسالة يقرر فيها : أن السلطان محمدا وحده هو الذى يستطيع تخليص
خراسان من قطاع الطرق، وتخليص ما وراء النهر من نير الكفار وأن سكان هاتين
المنطقتين ينتظرون وصوله بفارغ الصبر، وأنه يجدر بحكومة الخليفة أن تتناسى
فى لحظة كهذه عداءها للسلطان، وأن تسانده خاصة وأنه ليس هناك فى واقع الأمر
ما يدعو إلى نشوب هذا العداء". وفى توجيهاته إلى رسوله الذى يبعث به ليمثله
ببلاط السلطان السلجوقى غياث الدين محمد أمره أن يقتدى به وأن يدعو السلطان
بـ "سيد العالم، السلطان الأعظم حاكم وجه الأرض"[١].

---

(١) بارتولد تركستان، ص ٤٨٣.

غير أن هذه الدبلوماسية لم تجد نفعا مع قبائل القراخطاى الوثنية الرعوية. ففى سنة ٥٦٥هـ/ شنت هذه القبائل حملة ضارية على خوارزم بسبب امتناع ايل أرسلان عن دفع الاتاوة لهم فى الموعد المتفق عليه بين الطرفين، وكانت هذه الاتاوة بناء على اتفاق سابق بين الطرفين مقابل أن تتوقف غارات وهجمات هذه القبائل على حدود الأقليم، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش الخوارزمى، وأسر قائد جيشه، أما ايل ارسلان فعاد إلى عاصمته مريضا ولم يلبث أن توفى سنة ١١٧٢م[١].

عقب وفاة ايل ارسلان توقفت الجهود الخورازمية نحو التوسع حينا من الوقت نظرا لنشوب النزاعات الداخلية بين أفراد الأسرة. فعقب وفاته اعتلى العرش ابنه الأصغر سلطانشاه، فغضب الابن الأكبر تكش وكان آنذاك حاكماً على جند، وطلب العون من القراخطاى ووعدهم بدفع جزية سنوية مقابل مساعدته على استرداد جند. وتمكن تكش من استعادة العرش سنة ١١٧٢م باحتفال مهيب، وهرب سلطان شاه وأمه تركان إلى دهستان وتعقبهما تكش واستولى على المدينة، وأمر بقتل الملكة، أما سلطانشاه فهرب إلى غياث الدين ملك الغور [٢].

غير أن تكش سرعان ما انقض على القراخطاى، وقد أخذته حمية الملك والدين فقد كبر عليه أن يدفع جزية لهؤلاء البدو الكفار. فامتنع عن دفعها، وقتل رسولهم الذى جاء لاستلامها، واستنفر كبار رجال دولته فقتل كل واحد منهم رجلا من القراخطاى الموجودين فى بلاده، فلم يسلم منهم أحداً، فاستغل سلطانشاه هذه الحادثة، ونجح فى اقناع القراخطاى بمساعدته لاسقاط تكش واسترداد العرش. ولكن تكش عمل على إعاقة هذه الجيوش بإغراق البلاد. مما دفع القراخطاى إلى الانسحاب وتركوا مع سلطانشاه قوة عسكرية مكنته من الاستيلاء على خراسان

---

(١) بارتولد: تركستان، ص ٤٨٨.

(٢) بارتولد: المصدر السابق، ص ٤٤٨، ٤٤٩.

ومرو وسرخس وطوس.[1]

وكادت أن تقع الحروب بين الأخوين إلا أن تكش أراد أن يضع حدا لهذه الصراعات فأرسل إلى أخيه يدعو إلى الصلح والسلام. فلم يلب دعوته. ولكن سرعان ما وافته المنية. فانفرد تكش بحكم البلاد وتخلص من أهم مناوئ له.

تفرغ تكش لتوسيع حدود سلطانه، مستغلا في ذلك انشغال السلاجقة بحروبهم وصراعاتهم فاستولى على بخارى، ومرو، ونيسابور، والرى، وخضعت له إيران الغربية كلها، وتوجت جهوده بانتصاره الحاسم على طغرل آخر سلاطين السلاجقة سنة ١١٩٤م. وسقوطه في ساحة المعركة قتيلا، فاستولى بذلك على ملك السلاجقة في فارس والعراق وأصفهان وهمذان.[2]

توفى تكش سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م فخلفه ابنه علاء الدين خوارزمشاه، وفي عهده بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساع لها باستيلائه على خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكرمان ومكران والأقاليم الواقعة غرب نهر السند كما استولى على ممتلكات الغور في أفغانستان، وبذلك امتدت حدود مملكته من بلاد العراق غربا حتى بلاد الهند شرقا، ومن بحر قزوين شمالا حتى المحيط الهندي جنوبا.[3]

وبهذا الاتساع الشاسع وجد الخوارزميون أنفسهم وجها لوجه مع إمبراطورية المغول التي كانت تشمل آنذاك منغوليا ومساحات شاسعة من بلاد الصين. هذا التجاور سيترتب عليه نتائج بالغة الأهمية ليس بالنسبة للخوارزميين فحسب بل في تاريخ العالم الإسلامي كله.

وقبل أن نواصل حديثنا عن العلاقات بين الخورازميين والمغول. لابد لنا من وقفة لنتعرف على المغول.

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٤٩١

(٢) بارتولد المصدر السابق، ص ٤٩٤، ٤٩٩.

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة، ص ٢٩٨.

المغول والعالم الإسلامى

المغول شعب يشبه الترك في اللغة والمظهر العام. موطنهم الأصلى المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهرى سيحون وجيحون من الغرب، وحدود الصين الجبلية من جهة الشرق، حتى أقصى الشمال الشرقى لآسيا، ويمكن اعتبار هضبة منغوليا التي تمتد فى أواسط جنوبى سيبيريا وشمال التبت، وغربى منشوريا وشرقى تركستان وما تشملها من سلاسل جبال تيان شان، وصحراء جوبى. هى الموطن الأصلى لهذه القبائل. وقد تميزت هذه المنطقة بمناخ قارى إذ تتراوح درجة الحرارة فى معظم أجزائها ما بين ٣٨ درجة إلى ٤٢ درجة تحت الصفر مما يؤدى إلى تجمد أنهارها وبحيراتها فترة طويلة من العام. بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجليدية في سيبيريا. والعكس في فصل الصيف حيث ترتفع درجة الحرارة، وتهب العواصف المحملة بالرمال.

أما عن صفاتهم الجسدية فكانوا متقاربى الشبه والخلقة، ويتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التي عاشوا فيها، فقد كانت وجوههم عريضة، ورؤوسهم كبيرة، وأنوفهم فطساء، وخدودهم بارزة، وعيونهم صغيرة غائرة، شفاههم غليظة، وشعورهم سوداء خشنة، وجلودهم سمراء تميل إلى السواد قد لفحتها الشمس وأثرت فيها الرياح والثلوج، وهم قصيرو القامة، ذوو أجسام ممتلئة، وأفخاذهم قوية العضلات حتى يستطيعوا أن يتحملوا الحياة في هذه المناطق الشاسعة التي تجتاحها الثلوج فى الشتاء، والحرارة الملتهبة فى أسابيع الصيف.

كان المغول يتغذون بلحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب، وثعالب، وغذاؤهم قليل خاصة فى الشتاء إذ تقسو عليهم الطبيعة. ولهم طريقة فى حفظ اللحوم. فكانوا يقطعونها شرائح ويعلقونها فى الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة، وكانت ملابسهم بسيطة، ومصنوعة في الغالب من أصواف الأغنام أو وبر الإبل، أو جلود الحيوانات ولم يكن يوجد فرق كبير بين ملابس الرجال

وملابس النساء، وكان من عادة المغول أنهم كانوا لا يغيرون ملابسهم طوال الشتاء، أما في الصيف فيكتفون بتغييرها مرة واحدة كل شهر، ومن عاداتهم ألا يغسلوا ثيابهم بل يتركونها حتى تُبلى، وكانوا يطلون أجسامهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة. وقد تميز المغول بالبراعة في ركوب الخيل، والسعي لاكتشاف المراعي والماء، واستخدام الأسلحة وقوة الاحتمال، وحب المخاطرة، واتساع الأفق وحب التسلط، مما جعل منهم جنودا بارعين على أهبة الاستعداد في كل لحظة.

أما عن ديانتهم، فتسمى الشامانزم وهى عبادة مظاهر الطبيعة من سماء وشمس وغيرها. وأن اعتقد بعضهم بوحدانية الله خالق السماء والأرض[1].

كان المغول بدو رحل، ورعاة ينتقلون من مكان لآخر سعيا وراء المراعي والاعشاب، وكانت حياتهم تقوم على السلب والنهب والإغارة على الممالك المتحضرة في الصين، وبلاد ما وراء النهر وإيران، ورغم الضربات الشديدة التي كانت ينزلها حكام هذه الممالك بهم. فإنهم لم يكفوا عن الإغارة عليهم. مما دفع الصينيون إلى إقامة سور الصين العظيم للتصدى لهم.

ظلت هذه القبائل في تنافس وتنازع حتى ظهر من بينهم شاب اسمه "تيموجين" نشأ يتيما، وكان أبوه زعيما لأحد القبائل، فلما توفي أنفض أفراد قبيلته من حوله واستصغروا شأنه واستضعفوه. فعاش مع أمه وأخوته في بؤس وشقاء، يعيشون على صيد الحيوانات، وأكل لحومها. وبيع جلودها . وكان في استطاعة تيموجين أن يبقى ثلاثة أو أربعة أيام بدون طعام، وفي بعض الأيام كان يقطع وريدا من أورده

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المغول انظر :

- اسماعيل عبد العزيز الخالدى : العالم الإسلامى والغزو المغولى (مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٤/ ١٩٨٤م) ص ١٩ وما بعدها.
- محمد عبد الباسط : الشرق الإسلامى من ظهور السلاجقة حتى زوال الخلافة العباسية (مطابع رابطة العالم الإسلامى، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ) ص ١٤٢.

فرسه الذى يركبه ليرشف رشفة من دمه ثم يسد الوريد ويواصل طريقه.

هذه المحن والصعوبات التى عاشها ، أصقلته واكسبته المقدرة على تحمل المشاق. وأخرجت منه رجلا صلبا أدهش العالم بقوته وجبروته وبطشه[١]. ولما بلغ جنكيز خان السابعة عشر من عمره. استطاع أن يجمع شمل أفراد قبيلته. وخضعت له القبائل المجاورة، ثم تمكن بقوته ودهاءه أن يُخضع جميع قبائل المغول تحت نفوذه، وتوجت جهوده بالنجاح فى سنة ٦٠٠هـ عندما ظهر فى الوجود "دولة المغول".

وضع تيموجين لدولته دستوراً شهيرا لينظم الحياة العامة فيها، وقد عرف باسم الياسا أو الياساق وهى كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعى. وكانت تحتوى على التنظيمات العسكرية، فضلا عن مواد لتنظيم الحياة المدنية مثل تحريم السرقة، وقطع الطرق، كما نظمت الحياة العائلية أيضا فأصبحت المرأة تتمتع باستقلال واسع، واحترام عظيم، ولم يعد دورها يقتصر فقط على إدارة البيت ونشأة الأطفال بل بعد ذلك إلى المشاركة فى الحرب والقتال، ومرافقة الجيش ، والاهتمام بالمحاربين[٢].

ومع ذيوع صيته وسيادة تعاليمه وشهرة تنظيماته، وخضوع جميع أصقاع منغوليا لسلطانه، بدأ يعتقد جازما أنه يحمل تفويضا الهيا بحكم البلاد. وكان يردد مع المغول عبارته الشهيرة، هناك شمس واحدة فى السماء، وسيد واحد على الأرض"، واتّخذ لنفسه لقب جنكيز خان بمعنى "سيد البشر" "وأعظم حكام الأرض".

وجه جنكيز خان عنايته نحو توسيع رقعة بلاده، فاتجه إلى إمبراطورية كين فى الصين الشمالية، وأخضعها لسلطانه سنة ٦١٢هـ. وغنم غنائم كبيرة، واستولى

---

(١) محمد عبد الباسط : المرجع السابق، ص ١٤٦-١٤٨.

(٢) اسماعيل عبد العزيز الخالدى : العالم الإسلامى والغزو المغولى، ص ٣١.

على كنوز ونفائس ملوك الصين. مما كان له أكبر الأثر فى ترقية حياة المغول، الذين أخذوا ينهلون من الحضارة الصينية الكثير من المظاهر مثل صناعة الخيام من الحرير، وتزيين سيوفهم بالجواهر، واستعمال البارود(١).

ومع استيلاء جنكيز خان على الصين الشمالية تجاورت إمبراطورية المغول المترامية الاطراف مع الدولة الخوارزمية العظيمة، وبدأت كل دولة منهما تقف موقف المترقب المتربص بالأخرى. وبدأت العلاقات بينهما بتواتر أخبار انتصارات المغول فى الصين. الأمر الذى أثار إهتمام الخوارزمية فأرسل السلطان جلال الدين خوارزم شاه - والذى آلت إليه الأمور عقب وفاة ابيه تكش. سفارة للتحقق من صدق هذه الأخبار، وللحصول على معلومات دقيقة عن جنكيز خان وقوته العسكرية، وعدد جيوشه، وكان على رأس هذه السفارة بهاء الدين رازى الذى رأى وسمع فى طريقه لمقابلة جنكيز خان مظاهر التخريب الشديد، وعظام القتلى التى كانت تصنع تلالا بأكملها. كما رأى الأرض وهى مشربه بدماء الأدميين. وقد أدى تعفن الجثث إلى وباء مات بسببه بعض رفاقه، وعند باب بكين شاهد تلاً هائلا من العظام البشرية. كما نما إلى علمه أنه عند استيلاء جنكيز خان على بكين قذفت ستون ألف فتاة بأنفسهن من الأسوار حتى لا يقعن فى أسر المغول. وقد نقل هذه الصورة بدقائقها إلى سلطان الخوارزمية. (٢)

أثبت جنكيز خان بحسن استقباله للسفراء الخوارزميين واحاطتهم بكل مظاهر الاحترام والعطف أنه لم يكن مقاتلا فذا فحسب، وقائدا عسكريا فقط، بل كان سياسيا داهية، ودبلوماسيا من الطراز الأول. فقد ظهر بمظهر الزعيم الساعى لرخاء شعبه المدافع عن مصالحه، ولما كانت التجارة مع الدولة الخوارزمية تمثل أهمية خاصة فى حياة المغول خاصة تجارة الثياب والغلال. فقد حرص على مناقشة وسائل

---

(١) إسماعيل عبد العزيز : العالم الإسلامى والغزو المغولى، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) بارتولد : تركستان، ص ٥٦٣.

تنشيطها بين البلدين. وتشجيع التجار المسلمين على القدوم إلى بلاد المغول للربح والتجارة، وقد أمرهم بأن يخبروا خوارزمشاه بأنه يعتبره سيد المغرب بنفس الدرجة التي يعتبر فيها نفسه سيد المشرق، وأنه يرغب فى أن يحل الوئام والسلام بينهما، وأن يتمتع التجار بحرية السفر والانتقال من بلد لآخر. وأشار إلى أن المغول يحملون احتراما خاصا للمسلمين بصفة عامة، وللتجار بصفة خاصة، وأنهم ينصبون لهم خياماً من الوبر الأبيض دليلا على هذا الاحترام.

ومن جهته أرسل جنكيز خان سفارة مماثلة إلى جلال الدين خوارزم شاه تؤكد على طلب المسالمة والموادعة. وأرسل معهم بعض الهدايا منها قطعة من الذهب الصامت من جبال الصين فى حجم سنام الجمل، وبعض المعادن النفيسة، ونوافج المسك، وبعض الثياب المصنوعة من وبر الجمل الأبيض، وكان الثوب يباع منها بخمسين ديناراً أو أكثر وغيرها من الهدايا. وكانت فحوى رسالتهم "أن الخان يسلم عليك ويقول ليس يخفى علىَّ عظيم شانك وما بلغت من سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك، وانفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادى، وغير خاف عليك أيضا أننى ملكت الصين، وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت إلىَّ قبائلهم وأنت أخير الناس بأن بلادى مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها. فإن رأيت أن نفتح للتجار فى الجهتين سبل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد[1].

عاد السفراء إلى جنكيز خان يحملون معهم وثيقة ممهورة بخاتم السلطان علاء الدين تشمل موافقته على معاهدة السلام والتجارة بينهما فسر بذلك جنكيز خان. وتدفقت القوافل التجارية إلى بلاده، وعند الرجوع بعث معهم جنكيز خان رسولا يحمل رسالة إلى السلطان خوارزم شاه يقول له فيها "إن التجار وصلوا إلينا، وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، وقد سيرنا معهم جماعة من علمائنا

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٥٦٣، ٥٦٧.

ليحصلوا على طرائف تلك الأطراف، فينبغى أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين"[1].

لم تدم العلاقات الطيبة بين الطرفين طويلا، فسرعان ما تكدر صفو العلاقات بينهما إثر وصول قافلة تجارية مكونة من اربعمائة وخمسين رجلا من المغول وكان معهم خمسمائة جمل محملة بالبضائع من الذهب والفضة والحرير الصينى وغيرها من اللطائف والطرائف. وصلت القافلة إلى مدينة اترار الواقعة على الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية. وكان بها حاكم من قبل خوارزمشاه يدعى "ينال خان" وكان من أقرباء تركان خاتون ابنة خال السلطان فطمع فى أموالهم وتجارتهم، فأرسل إلى السلطان يتهمهم بالجاسوسية. فأمره بالتحفظ عليهم حتى يرى رأيه فيهم. غير أن ينال خان تعدى حدوده فألقى القبض عليهم، وقتلهم جميعا واستولى على أموالهم. ولم ينج منهم سوى واحدا تمكن من الهرب إلى بلاط جنكيز خان وأخبره بتفاصيل المذبحة[2].

أبدى جنكيز خان ما كان قد رواد نفسه عليه من ضبط النفس، والحلم عند الغضب، فأرسل إلى خوارزمشاه سفاره يطلب تفسيرا أو توضيحا لما حدث. وتطالبه بتسليم حاكم أترار لمعاقبته، وكان رد السلطان خوارزمشاه غير متوقعا فقد قام بقتل الرسول. وأطلق رفيقاه بعد أن حُلقت لحياهما ليخبرا جنكيز خان بما حدث. فرد قائلا : "لا تجتمع شمسان فى سماء واحدة، ولا يجوز أن يبقى خاقانان على أرض واحدة فأرسل إلى خوارزم شاه رسالة مقتضبة تنذره بسوء عاقبة تصرفه.

لم يعد هناك مفرا من الحرب وبدأ جنكيز خان يعد لها عدتها فقسم جيشه إلى أربعة جيوش الأول بقيادة ابنيه جغتاى وأوكتاى ومهمته فتح أترار، والقبض على حاكمها للثأر منه، والجيش الثانى تولى قيادته ابنه جوجى ووجهته البلاد الواقعة

---

(١) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول.

(٢) محمد عبد الباسط : الشرق الإسلامى، ص ١٥٣.

على ساحل نهر جيحون، والجيش الثالث مهمته فتح البلاد الواقعة على نهر سيحون. أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول ويقوده جنكيز خان وابنه تولي ووجهته وسط إقليم ما وراء النهر. ولعل هذه التنظيمات تؤكد أن جنكيز خان أرادها حربا شاملة تمكن خلالها من السيطرة على أترار وسيق حاكمها ينال خان إليه فأذاقه وبال أمره، إذ أمر بأن تصب الفضة المسكوكة في أذنيه وعينيه وقتل تعذيبا. وسقطت أترار في أيديهم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م فقتل المغول سكانها، ودمروها تدميرا.

بعدها توالى سقوط المدن الخوارزمية في أيديهم، فاستولى على جند وفرغانه ومدن نهر جيحون، والبلاد الواقعة على نهر سيحون وبخارى، وسمرقند، ودانت لهم بلاد ما وراء النهر بأكملها، وبلاد العراق العجمي فاستولوا على الري وهمذان وقزوين وأذربيجان وبلاد الكرج وخراسان وخوارزم وغيرها.

اتسمت هجمات المغول على البلاد الإسلامية بطابع الوحشية والهمجية. فقد أشاعوا الخراب والدماء والقتل والتشريد والنهب، فكانوا يهجمون على المدن الإسلامية فيقتلون سكانها عن بكرة أبيهم، وأحيانا كانوا يجبرون آخرين على مغادرة مدينتهم دون أن يحملوا معهم إلا ما يسترهم من ثياب، وكانوا ينهبون المساجد وسنابك خيولهم تطأ أوراق القرآن الكريم، وكانوا يغتصبون النساء ويأسرون الرجال، ويقتلون الأطفال، ويقال أن جنكيز خان جمع الناس بموضع صلاة العيد في مدينة خوارزم. وخطب بينهم خطبة وصف نفسه فيها بأن "غضب الله الذي سلطه على البشر لسوء فعلهم". ولم تنج من هذه المذابح أسرة السلطان علاء الدين . فقد تمكن جنكيز خان من اقتحام القلعة التي كان تتحصن فيها امه تركان خاتون والأميرات وأولاد السلطان. وتم قتل الأولاد جميعهم[1]، أما الأميرات فقد تم أسرهن وتوزيعهن على أمراء المغول، أما الأم تركان خاتون فقد سيقت إلى

---

(١) بارتولد : تركستان ، ص ٦٠٧-٦٠٩.

منغوليا حيث توفيت فى أسرها عام ٦٣٠هـ. ولدى مغادرتهم أرض الوطن سمح للمملكة ولبقية الأميرات والنساء بالعويل والصراخ تعبيرا عن حزنهن"[١].

أما السلطان علاء الدين فلم يجد أمامه سوى الهرب، وأخذ ينتقل من بلد لآخر والمغول يتعقبونه، وصادف ذلك فصل الشتاء حيث البرودة القارسة، وانتهى به المطاف إلى جزيرة صغيرة تقع بالقرب من مصب نهر جرجان. وقد وصل إليها وهو يقاسى من التهاب الرئة. وقد بلغت حالته درجة من السوء لم يبق معها أمل فى الشفاء. وكان يعيش على صدقات أهالى الجزيرة، وكان يقول، لم يبق لنا مما ملكنا من أقاليم الأرض قدر ذراع نحفره فنقبر فيه، فما الدنيا لسكانها بدار ولا ركونة إليها سوى انخداع واغترار "وعند وفاته سنة ٦١٧هـ لم يكن معه ما يكفى لشراء كفنه، فكفنه أحد اتباعه بقميصه. وكان قد أوصى بالسلطنة من بعده لابنه جلال الدين منكبرتى.[٢]

ولى السلطان جلال الدين منكبرتى فى ظروف غريبة، فمملكته مسلوبة قد استولى عليها المغول وجيشه ممزق، وخزائنة منهوبة، إلا أنه كان شجاعاً مقدماً عقد عزمه على استرداد ملكه المسلوب فجمع شتات جنده، وتوجه إلى غزنة والتقى بالمغول فى السهول المحيطة بالمدينة، وابدى جلال الدين من الشجاعة وضروب الفروسية ما مكنه من هزيمة المغول، وفرارهم من أمامه، ودخل غزنة.

أثارت هذه الأنباء الحماسة فى نفوس أهالى المدن الإسلامية التى كانت قد أرهبها المغول فثارت ضد حكامها الجدد، وأعلنت تضامنها مع جلال الدين، وبينما كانت الأمور تسير فى صالح المسلمين، إذ دب الشقاق والانقسام بينهم، ولم يراعوا

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٦٠٧، ٦٠٨.

(٢) بارتولد : المرجع السابق، ص ٦٠٢، ٦٠٣.

عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة، ص٣٠٤، وما بعدها.

اسماعيل عبد العزيز الخالدى، العالم الإسلامى والغزو المغولى، ص ٧٨، ٧٩ وما بعدها.

ظروفهم أو الأخطار المحدقة بهم. بل أن فرقة بأكملها من جيشه قد انسلخت بقائدها بغراق إلى بلاد الهند. وقد حاول جلال الدولة أن يثنيه عن عزمه وألح عليه فى ترك الشقاق والانقسام بل بكى بين يديه ولكن لم يزده ذلك سوى إصراراً. الأمر الذى مكن المغول من إعادة الكره ونجحوا فى إلحاق الهزيمة بالمسلمين[1] . وظل جلال الدين يقاتل بشجاعة نادرة وليس معه سوى سبعمائة رجل بهدف إحداث ثغرة فى صفوف المغول تمكنه وأتباعه من الهرب خلالها، ولما نجا اتجه صوب نهر السند ممتطيا جواده فى زهاء أربعة الاف من جنده. بقلب محزون، ونفس كسيرة على ملكه المسلوب، وجيشه المشتت وقوته المبعثرة، وابنه المذبوح بين يدى جنكيز خان، ولم يكن قد أكمل عامه الثامن بعد، وأمه وأم ولده وحرمه الذى اضطر أن يستجيب لرغبتهن فأغرقهن بيده خوفا من أن يقعن فى الأسر[2].

وصل جلال الدين وجيشه إلى الهند، وقد عقد عزمه على أن يعلو على أحزانه وظروفه ويسترد قوته. لمواصلة حروبه مع المغول، واسترداد عرشه، وبعد ثلاث سنوات قضاها فى حروب وصراعات مع ملوك الهند لخوفهم من نفوذه وبأسه. إلا أنه تمكن خلالها من تنظيم جيشه، وترتيب صفوفه. ولما علم بوفاة جنكيز خان، وانشغال المغول بأمورهم الداخلية. وجد أن الفرصة قد حانت لاستعادة ملكه فعبر نهر السند وهزم المغول فى عدة وقائع، واسترد كرمان وفارس وأصفهان، كما استولى على أذربيجان وجورجيا وعادت إليه معظم بلدان المملكة الخورازمية. أما بلاد ما وراء النهر فظلت فى يد المغول[3].

تجددت الاشتباكات بين جلال الدين منكبرتى والمغول عقب انتخاب اوكتاى

---

(١) بارتولد : المصدر السابق والصفحات.

(٢) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩

(٣) محمد عبد الباسط ، الشرق الإسلامى من ظهور السلاجقة حتى الغزو المغولى، ص ١٦٥، ١٦٦.

بن جنكيز خان خانا أعظم لهم. وقد افتتح عهده بإرسال جيشا إلى الدولة الخوارزمية نجح فى هزيمتها واستعاد الرى وهمذان وأذربيجان، وأخذوا يتعقبون جلال الدين الذى لجأ إلى قرية من قرى ميافارقين واعتصم بجبال كردستان، حيث كانت نهايته على يد أحد الأكراد[1].

وبذلك انتهت حياة جلال الدين منكبرتى، وسقطت بموته الدولة الخوارزمية.

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٣٧٦.
محمد عبد الباسط : الشرق الإسلامى، ص ١٦٨.
عصام الدين عبد الرؤوف : اول الإسلامية المستقلة، ص ٤٤٩.

العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية

سيطر سلاجقة العراق على مقاليد الأمور فى بغداد، وفرضوا نفوذهم على الخلافة التى كانت تئن تحت وطأتهم. وفى أواخر عهدهم، جلس على عرش الخلافة الناصر لدين الله وكان مختلفا عما سبقه من خلفاء بنى العباس الأواخر. فقد رفض الخضوع لأى قوة خارجية، كما حمل على عاتقه مسؤولية استعادة هيبة الخلافة ونفوذها المسلوب واسترداد صلاحياته وسيادته المسلوبة. والعمل على توازن القوى السياسية بما يضمن إحكام قبضته عليها. ووجد أنه يتعين عليه أولاً التخلص من سيطرة السلاجقة، ووجد فى القوة الخوارزمية الناشئة وسيلته لذلك. فارسل إلى علاء الدين تكش خورزم شاه يشكو إليه من نفوذ طغرلبك آخر سلاطنة سلاجقة العراق ويحرضه على قتاله، ويعده بأن يقره على ولاية خوارزم ان نجح فى التخلص منه. [١]

لاقت هذه الدعوة هوى فى نفس الخوارزمى، إذ وجد فيها مسوغا شرعيا لمحاربة السلاجقة، والقضاء عليهم، والسيطرة على ممتلكاتهم وتحقيق هدفه فى إقامة مملكة قوية مترامية الأطراف تحت دعوى نجدة الخليفة، والاستجابة لإغاثة الخلافة. والتقى الجيشان السلجوقى والخوارزمى. وانتهى اللقاء بسقوط طغرل فى ساحة المعركة وقطع رأسه، وإهدائه إلى الخليفة الذى أمر بأن يعلقه على أحد أبواب بغداد عدة أيام. [٢]

استغل تكش هذا الانتصار، وقام باجتياح ممتلكات السلاجقة فى الشرق، واستولى عليها، وعمل على تصفية الوجود السلجوقى تماما، الأمر الذى أثار مخاوف الخليفة الناصر من تفاقم أطماعه ووجد أنه لا يقل أطماعا عما سبقه من السلاجقة والبويهيين من قبلهم. ومن هنا بدأ الاحتكاك بينهما عندما أرسل الخليفة

---

(١) محمد عبد الباسط : المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص ٨٩.

خطاب التقليد، والخلعة مع وزيره مؤيد الدين، وقد زوده بالكثير من التوجيهات والأوامر، وشدد عليه فى إظهار هيبة الخليفة وسيادة الخلافة فى أثناء لقاءهما. فعرض الوزير مطالب الخليفة فى كثير من الصلف والتعالى. فأعلن بأن خوارزم شاه يدين بعرشه "للديوان العزيز"، يقصد حكومة بغداد، كما أعلن أن أرض المسلمين إنما هى جميعا ملك للخليفة العباسى امير المؤمنين، وأنه ليس لأحد أن يدعى ملكيتها، وبالتالى فإن خراجها يجب أن يوجه إلى دار الخلافة". كما شرط الوزير عليه أن يأتى بنفسه إلى خيمته لاستلام عهد التقليد والخلعة، وأن يكون هو البادئ بالتقدم نحوه، وأن يترجل عن صهوه جواده. إلا أن تكش رفض جميع هذه المطالب. بل هدد بمحاربة الخلافة، ولكن جاءت وفاة الوزير مؤيد الدين سنة ١١٩٦م سببا لتأجيل الصدام. (١)

استمر الخليفة الناصر على عدائه للدولة الخوارزمية بسبب حرصه على وضع حدا لأطماعها فقد أصر على أن يخلى خوارزم شاه إيران الغربية بأكملها. ويقتصر على إقليم خوارزم فقط. وكان رد تكش هو أن أملاكه بما فى ذلك العراق لن تكفى للقيام بنفقة جيشه الجرار، وأنه ينتهز هذه الفرصة ليطلب من الخليفة أن يتنازل له عن خوزستان أيضا، وكان هذا الرد تحديا للخليفة الذى لم يجد مفرا سوى الحرب والقتال. واشتبك جيش الخلافة مع الجيش الخورازمى فى معركة طاحنة، ولكن النتيجة كانت فى صالح الجيش الخوارزمى. وعاد الجيش العراقى مهزوما إلى بغداد، وفى أعقابه وصلت رسل تكش إلى دار الخلافة العباسية يطالبون الخليفة بأن تقام الخطبة باسم السلطان تكش على منابر بغداد، ويذكر اسمه على السكة.

كما اقترح عليه أن يعيد دار السلطنة فى بغداد إلى ما كان عليه الحال أيام السلاجقة، حتى إذا حضر إلى بغداد وخُلعت عليه السلطنة أقام فى هذه الدار ليكون الخليفة تحت مراقبته وسيطرته. ولاشك أن هذه المطالب قد أثارت استياء الخليفة

---

(١) بارتولد : المرجع السابق، ص ٥٠٠، ٥٠١.

خاصة وأنه كان يلمس فيها روح التحدى والاستهزاء، لذلك فقد أمر بهدم دار السلطنة في بغداد، ورد الرسل بغير جواب، وقد أسفر هذا التوتر عن تعدد الصدامات والحروب بينهما. ومزيد من التخريب والتدمير والتشريد، فقد استغلت جيوش تكش وكانوا من الأتراك المرتزقة هذه الظروف وقاموا بالسلب والنهب وسرقة أهالي البلاد. ولم تكن جيوش الخلافة بأقل منهم سلباً ونهباً. (١)

استمرت العلاقات العدائية بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية حتى بعد وفاة تكش، وفي عهد خليفته علاء الدين محمد خورازمشاه الذى ألح فى مطالبه الخليفة الناصر لدين الله بأن يذكر اسمه في الخطبة على منابر بغداد، وأرسل لهذا الغرض رسولا هو القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي. وقد رد الخليفة بالرفض القاطع، وأرسل بدوره إليه سفارة برئاسة الشيخ شهاب الدين السهروردى يدعوه إلى نبذ الخلاف، والخضوع لهيبة وسلطان الخليفة، وقد أورد بارتولد تفاصيل اللقاء فيذكر أن السلطان خورازمشاه قد جعل الشيخ ينتظر طويلا قبل أن ياذن له بالدخول عليه، ولما دخل لم يسأله الجلوس. وأمره بأن يلقى رسالته. وبدأ السهروردى كلامه بحديث مفاده أن النبى حذر المؤمنين من إيذاء آل عباس. فكان رد السلطان "أنا وان كنت تركيا قليل المعرفة باللغة العربية، لكننى فهمت معنى الحديث، غير أنى ما أذيت أحداً من ولد العباس ولا قصدتهم بسوء، بل قد بلغنى أن في محبس أمير المؤمين منهم خلقا مخلدين يتناسلون بها ويتوالدون، فلو أعاد الشيخ حديثه على مسامع أمير المؤمنين كان أنفع وأجدى". وهكذا فشلت هذه السفارة. (٢)

خشي علاء الدين محمد خوارزمشاه من أن يستغل الخليفة العباسى هذا الرد فيشن عليه حملة دعائية مضادة، ويظهره للرأى العام الإسلامى بأنه مناهضا

---

(١) محمد عبد الباسط، الشرق الإسلامى، ص ١٣٣.

(٢) بارتولد : تركستان، ص ٥٣٣، ٥٣٤.

إسماعيل عبد العزيز الخالدى : العالم الإسلامى والغزو المغولى، ص ٤٩، ٥٠.

للخلافة معاديا للخليفة الذى كان لايزال يحظى باحترام المسلمين، حتى أنهم كانوا يرون أن مبايعته ركنا من أركان الإسلام. لذلك فقد سارع بتقديم الحجج والتبريرات لموقفه فأعلن أنه عثر على رسائل بغزنة تكشف عن تورط الخليفة الناصر بتحريض أمراء الغور ضده، واستطاع السلطان أن يحصل على فتوى من أئمة البلاد تدين الخليفة وتصرفاته. وأن الإمام الذى يحيك هذه المؤامرات ضد سلطان حمل على عاتقه نشر الإسلام ومحاربة الكفار، ورفع لواء لا إله إلا الله فإنه يسقط حقه فى الإمامة، ويحق للسلطان الخوارزمى عزله، وتنصيب أمام أخر.

ولما كان السلطان خوارزم شاه قد تشيع فقد رأى أن يلغى الخلافة العباسية السنية، ويقيم بدلا منها خلافة علوية فاستصدر فتوى من رجال الدين فى مملكته بأن الخلافة من حق العلويين من نسل الحسين واغتصبها منهم بنى العباس" واستنادا لهذه الفتوى فقد أعلن السلطان عزل الخليفة الناصر وحذف اسمه من خطبة الجمعة ومن السكة، لأنه غير أهل للخلافة، وانتخب رجلا علويا من مدينة ترمذ يدعى علاء الملك، وخطب له بالخلافة على منابر الدولة الخوارزمية، وصك اسمه على السكة. وقد سر الشيعيون فى بلاد فارس بهذا التغيير. واعتقدوا أن جهدهم المستمر عبر قرون طويلة قد كلل بالنجاح.

لم يكتف علاء الدين خوارزم شاه بهذه الإجراءات، بل وصل إلى ابعد من ذلك، فعندما علم باستنجاد الخليفة الناصر باتابكة فارس والعراق، وقبائل القراخطاى، والإسماعيلية. وراح يحرضهم على محاربة الخوارزمية، والاستيلاء على ما بيدهم من بلاد، وكان يمدهم بالخيل والجنود، والعتاد، ويغدق عليه بالخلع والهبات. وقد أسفرت هذه المحاولات عن نجاح الاسماعيلية فى اغتيال أغلمش ، الوالى الخوارزمى فى العراق العجمى. مما أثار غضب السلطان الخوارزمى فقرر الخروج على رأس جيش كبير من همذان متجها إلى بغداد، إلا أن هذا الجيش تعرض لعواصف ثلجية بجبال كردستان، ومنى بخسائر فادحة، فلم يرجع منهم إلا

القليل. وهنا أعلن السلطان الخوارزمي موت الخليفة.

انتعشت الخلافة بهذا الانتصار، وأخذ علماؤها ومؤيدوها يعلنون أن هذا نصر من الله. وأن البيت الشريف العباسي "لم يقصده أحد بأذى إلا لقي جزاء فعله وخبث نيته".(١)

انتقلت العلاقات العدائية بين العباسيين والخوارزميين إلى مرحلة خطيرة، فعندما رأى الخلافة أن علاء الدين خوارزم شاه قد نكل بكل أعدائه الذين استعانت بهم الخلافة ضده كالغور والقره خطاي، والإسماعيلية، فلم يجد الخليفة من ينصره على عدوه الخوارزمي سوى الاستعانة بجنكيز خان زعيم المغول، وقد استبعد بعض المؤرخين هذه الرواية، في حين أيدها البعض الآخر ومنهم ابن الاثير الذى قال فى معرض حديثه عن أسباب الغزو المغولى "وقيل فى سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ما لا يذكر في بطون الكتب، فكان ما كان مما لست أذكره، فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر". وقد رد جنكيز خان على الخليفة العباسى ردا لطيفا معتذرا بوجود اتفاقية صداقة بينه وبين خوارزمشاه" إلا أن هذه الرسالة وجهت نظره إلى ضعف العالم الإسلامي وانقساماته وصراعاته. وعندما سنحت له الظروف لم يتردد في اجتياحه.

أسفر استنجاد الخليفة الناصر للمغول عن ردة فعل غاضبة من جلال الدين منكبرتي الذى سُلب ملكه وذبح ابنه، وغرق حرمه، وتشرد هو وجنوده فى البلاد على يد هؤلاء المغول. وقد دفعه حقده وكراهيته للخليفة العباسي أن أرسل إلى المعظم عيسى صاحب دمشق يحرضه على غزو أملاك الخليفة العباسي. وقد جاء فى هذا الكتاب "تحضر أنت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة، فإنه كان

---

(١) بارتولد : تركستان، ص ٥٣٥.

محمد عبد الباسط : الشرق الإسلامي من ظهور السلاجقة حتى زوال الخلافة العباسية، ص ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨.

السبب فى هلاك المسلمين، وفى هلاك أبى، ومجئ الكفار إلى البلاد، ووجدنا كتبه إلى الخطا، وتوقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل".(١)

أدى تحالف المعظم عيسى مع الخوارزمية إلى إثارة مخاوف البيت الايوبى وخاصة أخيه الملك الكامل صاحب مصر ذلك لأن الخوارزمية آنذاك كانوا مشردين لا وطن لهم ، ملكهم مسلوب وبلادهم منهوبة، وكانوا ينتقلون من مكان لآخر حفاه عراة كأنهم بعثوا بعد النشور على حد قول المؤرخين المعاصرين، وفى بحثهم عن وطن يعيشون على أرضه، وتحت سمائه، كانوا لا يتورعون عن السلب والنهب والإغارة، حتى وصفوا بأنهم كانوا لا يقلون وحشية عن المغول. الأمر الذى أثار مخاوف الملك الكامل من اجتياجهم لقلب العالم الإسلامى أثر اتفاقهم مع أخيه المعظم عيسى لذلك قام هو الآخر بتصرف لا يقل غرابة عما ذكرناه. إذ استنجد بالصليبيين وخاصة الإمبراطور فريدرك الثانى ملك المانيا، وحامل تاج بيت المقدس. واستدعاه إلى الشرق فى مقابل أن يتنازل له عن بيت المقدس. وكان وراء ذلك أسبابا عديدة منها : تخويف أخيه ومنعه من الاتفاق مع الخوارزمية. وقدم فريدريك إلى بيت المقدس ، وعقد اتفاقية مع ملك مصر، وعلى أثرها عاد إلى بلاد يحمل مفاتيح بيت المقدس.

وهكذا التردى لا يؤدى إلا لمزيد من التردى، والسقوط يتبعه سقوط، والانقسامات والصراعات بين الحكام يدفع ثمنها الرعية والبلاد.

---

(١) محمد عبد الباسط : الشرق الإسلامى من ظهور السلاجقة حتى زوال الخلافة العباسية، ص ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠.